

الأخلاق في الإسلام

بين النظرية والتطبيق

مكتوب
محققو ذلك علم عزم ام
كلية الدراسات العربية
جامعة المنيا

دار النهضة
الطبعة الأولى والثانية



Bibliotheca Alexandrina



0129215

الأخلاق في الإسلام
بين النظرية والتطبيق

دكتور
محفوظ علي عزام
كلية الدراسات العربية / جامعة المنيا

الأخلاق في الإسلام بين النظرية والتطبيق

الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٦ م

دار الهداية
للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء ، أحمدوه حمدا لا منتهى
لمحده ، ولا حساب لعدده ، ولا مبلغ لغايته ، ولا انقطاع لأمدده .. حمدا
يكون وصلة الى عفوه ، وسببا الى رضوانه ، وذريعة الى مغفرته ،
وعونا على تأدية وظائفه .

وأصلى وأسلم على امام المتقين وسيد العالمين محمد عبد الله
ورسوله الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة وترك الناس على المحجة
البيضاء ليلا كنهارها ، والذي امتدحه ربه بقوله : « وانك لعلى خلق
عظيم » ، والذي قال عن نفسه « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ، والذي
قالت عنه عائشة رضى الله عنها : « كان خلقه القرآن » .

وأعوذ بالله من شرور نفسى وسيئات أعمالى .. وبعد .

فهذا كتاب عن « الأخلاق فى الاسلام بين النظرية والتطبيق » ،
وقد قسمته الى بابين ، وكل باب الى فصلين ، فكان الكتاب بذلك
فصولا أربعة .

ولقد عالج الباب الأول الأخلاق النظرية فى فصلين ، تحدث الأول
منهما عن علم الأخلاق وأهميته ، وقد عرض لتعريف الأخلاق والعلم
الخاص بها ، وموضوعه ، وبين الغاية من الأخلاق وضرورتها لاستقامة
الحياة وعمارتها .

كما تناول الفصل الثانى عشر الأسس الخلقية المتمثلة فى الالتزام
الخلقى ومصادره ، والمسئولية الأخلاقية والجزاء الأخلاقى المترتبين

على الالتزام ، والنية والمدافع وقيمه في خيرية العمل وشريته ، وتناول كذلك مسألة تطور القيم الخلقية وبين ثباتها •

أما الباب الثانى فقد عالج الأخلاق العملية في فصلين ، تناول الأول منهما نماذج من الأخلاق الفاضلة ، أو الحميدة ، تمثلت في أداء الأمانة والشجاعة والجهاد ، وتحدث الفصل الثانى عن بعض النماذج للأخلاق غير الفاضلة وغير الحميدة ، وتمثل ذلك في خلقين ذميين هما النفاق والظلم •

ولم أشأ أن أسير على منوال بعض الباحثين عندما يكتبون في الأخلاق ، فنراهم يتحدثون عن الأخلاق عند الغربيين بالذنين باليونان ومنتھين بالعصر الحديث ، أو نراهم يتحدثون عن مذاهب اللذة والمنفعة والسعادة وغير ذلك ، أو يتحدثون عن فلاسفة مثل بنتام أو غيره ، مع أننا لا نجد خلقا فاضلا الا في دين صحيح هو الاسلام •

لهذا كان مصدرنا في هذه الدراسة هو القرآن والسنة فهما مصدرا التشريع ومن ثم فهما مصدرا الأخلاق •

ولا أحد يستطيع أن ينكر قيمة الأخلاق في الاسلام فهى لب الاسلام وجوهره ، بل هى جوهر الرسالات كلها • وما ذلك الا لأن الأخلاق عماد الحياة بأسرها ، والحياة اذا خلت من القيمة الخلقية انتهت الى خراب ودمار •

والكتاب محاولة لتأصيل علم الأخلاق الاسلامى المتحرر من الفكر الغربى في جميع صوره • فان كنت قد وفقت في هذه المحاولة فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، وان كانت الأخرى فحسبى أنى قد حاولت •

وعلى الله قصد السبيل •

الجيزة في ٦/٩/١٩٨٦ •

د. محفوظ على عزام

الباب الأول

الأخلاق النظرية

• الفصل الأول : علم الأخلاق وأهميته

• الفصل الثاني : أسس الأخلاق

الفصل الأول

علم الأخلاق وأهميته

١ - تعريف الأخلاق

نجد في اللغة العربية مصطلحين يرتبطان بالمجال الأخلاقي ، هذان المصطلحان هما : الأخلاق والآداب غير أنه يجب القول بأننا لا ينبغي لنا أن نخلط بينهما ، فقد استعملت كلمة « أدب » للدلالة على الحكم القصار والجميل التي تعبر عن المعاني الخلقية ، وغالبا ما تكون في صيغة الجمع ، وأحيانا تكون في صيغة المفرد . فقد جاءت كتب تحمل اسم « الأدب » مثل كتاب « أدب الدنيا والدين » لأبي الحسن الماوردي ، ومثل كتابي « الأدب الكبير » و « الأدب الصغير » لابن المقفع ، وهي تدل على معان خلقية مختلفة . ومن ناحية أخرى فالأدب أقل عمقا من الأخلاق وأكثر شمولاً منها ، لأن معناه يتضمن ثقافة أدبية حسنة لاسبيل الى عدها بين الفضائل ، أو على الأقل بين أمهات تلك الفضائل ويرتبط بالأخلاق من جهة أخرى ما يسمى بالنصائح ، والوصايا (١) .

(أ) الأخلاق في اللغة :

الأخلاق جمع خلق ، والخلق في اللغة هو السجية والطبع والطبيعة والروءة والدين . وحقيقته أنه وصف لصورة الانسان الباطنة ، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة (٢) .

وقيل : ما أخذ به الانسان من الأدب يسمى خلقا ، لأنه يصير كالخلق فيه .

(١) كارادي نو : مقال بدائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ٤٣٧ ،

٤٤٥ - ٤٤٦ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب مادة « خلق » ١٠

ومعنى هذا أن الخلق حال للنفس ، وفعل من أفعالها ، تقوم به باستمرار ، بحيث يصبح عادة وطبعاً لها ، وطريقاً ومنهجاً تسلكه وتسير تبعاً له • أى أن الفعل إذا صدر عن النفس مرة واحدة أو في ظروف معينة لا يعد خلقاً لها • إذ الغرض من تعريف الخلق بأنه السجية والطبع والدين أن يكون الفعل راسخاً في النفس الانسانية بحيث يقال عن صاحبه أن ذلك خلق له إذا صدر ذلك الخلق عنه •

والمعاني اللغوية لكلمة « الأخلاق » تدل على أن للأخلاق جانبين، أحدهما : نفسى باطنى ، والآخر سلوكى ظاهرى ، أى أن الأخلاق نفسية أو معنوية ومظهرها الخارجى هو ما نسميه المعاملة أو السلوك فالأخلاق مصدر ، والسلوك مظهر •

كما أن الأخلاق تدل على الصفات التى اكتسبت وأصبحت كأنها خلقت مع طبيعة الانسان •

(ب) الأخلاق فى الاصطلاح :

هناك تعريفات كثيرة للأخلاق فى معناها الاصطلاحى نكتفى بذكر بعض النماذج لهذه التعريفات •

يقول مسكويه : « الأخلاق حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية ، وهذه الحال تنقسم الى قسمين : منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج ، كالانسان الذى يحركه أدنى شئ نحو غضب ، ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدرب ، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولاً فأولاً حتى يصير ملكة وخلقاً » (٣) •

وهذا التعريف يعد تعريفا ناقصا من حيث المصطلح ، وذلك لأن الفعل المخلقى يجب أن يتصف بصفتين أساسيتين هما : الارادة، والقيمة الجمالية للفعل • فلا نستطيع أن نسمى فعلا ما بأنه فعل خلقى الا اذا كان صادرا عن ارادة حرة حكيمة ، كما أنه لا بد أن يحتوى على الحكم بأنه خير أو شر •

ويقول الجرجاني في تعريف المخلوق : « الخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية ، فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلا وشرا بسهولة سميت الهيئة خلقا حسنا ، وان كان المصادرها منها الأفعال الفبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سبئا وانما قلنا انه هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على النذور بحالة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك فى نفسه ، وكذلك من تكلف السكوت عند الغضب أو روية لا يقال خلقه الحلم ، وليس المخلوق عبارة عن الفعل ، قرب شخص خلقه السخاء ، ولا يبذل اما لفقد المال أو لمانع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث أو رياء » (٤) •

يبدو أن هذا التعريف مأخوذ من الغزالي فى كتابه القيم « احياء علوم الدين » ، اذ هو مذكور فيه ، وفى غيره من كتب الغزالي •

على أية حال ، هذا التعريف الذى نقلناه عن « الجرجاني » لا يفرق بين الحكم على الشئ بأنه خير أو شر وبين الحكم عليه بأنه جميل أو قبيح •

كما أن هناك تعريفات أخرى للأخلاق ، فهى تعرف بأنها « قواعد السلوك » ، أو أنها « علم الواجب وعلم الخير والشر » •

(٤) الجرجاني : التعريفات ص ٩٠ - ٩١ •

ويذكر « لالاند » في معجمه عدة تعريفات للأخلاق هي :

١ — فهي قد تعنى « مجموع قواعد السلوك مأخوذة من حيث هي غير مشروطة » •

٢ — وقد يقصد بها العمل ، أو ان شئت الدقة « السلوك المطابق للأخلاق » حين يتحدث عن تقدم الأخلاق •

٣ — وقد تعنى من جهة ثالثة « نظرية عقلية في الخير والشر » وبهذا المعنى الأخير عرفت الأخلاق من جهة أنها علم معيارى (٥) •

ويعرفها بعض الباحثين بأنها : « أسلوب معين من السلوك ، يرمى الى تحقيق الخير في الحياة الانسانية ، وتحقيق الانسجام بين الفرد وربه ، وبين الفرد ومجتمعه ، وبين الفرد وذاته ، دون اخلال بعامل الارادة الحرة المستتيرة ، وصلاحية الفعل للحكم عليه بأنه خير ويستحق المدح أو شر ويستوجب الذم » (٦) •

ويلاحظ على هذه التعريفات السابقة أن بعضها مهتم بالناحية العملية في الأخلاق ، وأن بعضها الآخر يهتم بالناحية النظرية وأن بعضها يجمع بين الناحيتين النظرية والعملية •

(ج) مفهوم الأخلاق في الاسلام :

الأخلاق في الاسلام هي عبارة عن المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الانسانى التى يحددها الوحي لتنظيم حياة الانسان على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على الوجه الأكمل والأتم •

(٥) د. عبد الرحمن بدوي : الأخلاق النظرية ص ٨ •

(٦) د. سهير محمد مختار : محاضرات في الأخلاق ص ١٩ •

ويتميز هذا النظام الاسلامى فى الأخلاق بطابعين ، أما الأول فهو طابع الهى ، أى أنه مراد لله سبحانه ، وأما الثانى فهو طابع انسانى ، أى أن للانسان مجهودا ودخلا فى تحديد هذا النظام من الناحية العملية •

فهذا النظام من الأخلاق هو نظام من العمل من أجل الحياة الخيرة ، أى أنه طراز السلوك وطريقة التعامل مع النفس والله والمجتمع •

وهو نظام يتكامل فيه الجانب النظرى مع الجانب العملى منه • وهو ليس جزءا من نظام الاسلام العام ، بل هو جوهر الاسلام ولبه وروحه السارية فى جميع نواحيه ، اذ النظام الاسلامى — على وجه العموم — مبنى على فلسفته الخلقية فى الأساس • بل ان الأخلاق هى جوهر الرسائل السماوية على الاطلاق •

فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٧) وفى رواية أخرى : « انما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » (٨) • فالغرض من بعثته هو تمام مكارم الأخلاق ، بل الهدف من كل الرسائل هدف أخلاقى بل ان الدين نفسه هو حسن الخلق • بل ان الاسلام حسن الخلق •

فروح الاسلام روح أخلاقية ، هدفه فى الحياة تحقيق غاية أخلاقية •

هذه الروح ينطق بها كل جانب من جوانب الاسلام ، فعلى سبيل المثال :

(٧) رواه الامام مالك فى الموطأ والامام أحمد فى مسنده •

(٨) مسند الامام أحمد •

نجدها في جانب العقيدة حيث يربط الله — سبحانه — ورسوله صلى الله عليه وسلم بين الايمان وحسن الخلق • يقول عليه السلام : « ان من أكمل المؤمنين ايمانا. أحسنهم خلقا ، وألطفهم بأهله » (٩) • ثم ان الاسلام عد الايمان برا فقال تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين » (١٠) • ومن المعروف أن البر صفة للعمل الأخلاقي أو هو اسم جامع لأنواع الخير •

كما نجدها في العبادة ، إذ أن روح العبادة روح أخلاقية في جوهرها لأنها أداء الواجبات الالهية • ونجدها — أيضا — في المعاملات • وهي الشق الثاني من الشريعة الاسلامية ، بصورة أكثر وضوحا •

ومن الأدلة على ذلك ما نجده من اعتراف علماء الشريعة أنفسهم بذلك ، فهم يقولون — في معرض بيانهم لمقاصد الشريعة — ان مقاصد الشريعة ثلاثة وهي تحقيق الضروريات والحاجيات والتحسينات للانسان في هذه الحياة • والضروريات عندهم هي الأمور التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا ، بحيث اذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة ، بل على فساد وتهارج وفوت حياة وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم ، والرجوع بالخسران المبين • • ومجموع الضروريات خمسة • وهي : حفظ الدين ، والنفس ، والنسل ، والمال ، والعقل » (١١) •

(٩) رواه الترمذى والحاكم • انظر : المنذرى : الترغيب والترهيب
ج ٣ ص ٤٠٣ •

(١٠) : سورة البقرة ١٧٧ •

(١١) الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة ج ٢ ص ٨ ، ١٠ •

وأما الحاجيات فهي الأمور التي يحتاج اليها الانسان في هذه الحياة لرفع الضيق والحرَج والمشقة التي تكون نتيجة عدم تحقيق بعض المطالب مثل تحقيق كل حاجيات الانسان بشيء من السعة والرفاهية من المأكل والمشرب والملبس والسكن وازالة ما يؤدي الى الضيق والحرَج في بعض الظروف كالتخفيف عن المكلف بالرخص بعض التكاليف في حالات الاضطرار • وأما المتحسينات فهي اتخاذ أجمل وأحسن الأساليب في حالة معايشة الناس ومراعاة شعورهم واحساساتهم الأدبية ، أو بعبارة الشاطبي : « الأخذ بما يليق من محاسن العادات ، وتجنب الأحوال المذنسات التي تأنفها العقول للراجحات » (١٢) •

وهكذا نرى أن الاسلام قد ارتبطت جوانبه برباط أخلاقى لتحقيق غاية أخلاقية ، الأمر الذي يؤكد أن الأخلاق هي روح الاسلام، وأن النظام التشريعى الاسلامى هو صورة مجسمة لهذه الروح الأخلاقية •

هذا ونشير فى نهاية هذا التعريف بالأخلاق الى أن المخلق نوعان :
(أ) خلق حسن وهو الأدب والفضيلة ، وينتج عنه أقوال وأفعال جميلة عقلا وشرعا •

(ب) خلق سيئ : وهو سوء الأدب والرذيلة ، وينتج عنه أقوال وأفعال قبيحة عقلا وشرعا (١٣) •

وتنقسم الأخلاق من جهة أخرى الى :

١ — أخلاق نظرية : وهى عبارة عن مذهب خاص ، مؤلف من

(١٢) المرجع السابق ص ١١ •

(١٣) د. عبد اللطيف العبد : الأخلاق فى الاسلام ص ٧ - ٨ •

(٢ — الأخلاق)

قواعد للسلوك • وله مبادئ يستخلص منها قوانين يسير عليها
الانسان في شتى الأماكن ومختلف الأزمان •

٣ - أخلاق عملية : وهى عبارة عن مجموع قواعد السلوك التى
يمرعاتها يمكن للانسان أن يبلغ غايته القصوى ، ويصل الى السعادة
والخير الأسمى (١٤) •

٢ - تعريف علم الأخلاق

علم الأخلاق من العلوم التى تبحث عن الحقيقة ، ومن ثم فهو
يستهدف البحث عن المعرفة • وهو من هذه الزواوية علم فلسفى
معيارى ، فهو يبحث عن حقيقة الأشياء ، حيث يكشف عن صواب أو خطأ
السلوك الانسانى ، أو عن كونه خيرا أو شرا •

والأخلاق علم ينطبق عليه تعريف العلم ، اذ يمكن تحديد العلم
بأنه « نسق معرفى لمجموعة وقائع جزئية مترابطة » (١٥) وكلمة «نسق»
هنا كلمة مهمة ، لأنها هى التى تميز المعرفة العلمية عن المعرفة العادية
التي تتصف بالعشوائية وعدم الترابط •

أما تعريف علم الأخلاق فهو يعرف بأنه : « علم يبحث فى الأحكام
القيمية الى تنصب على الأفعال الانسانية من ناحية أنها خير أو
شر » (١٦) •

(١٤) د. سهير مختار : محاضرات فى الأخلاق ص ١٢٠ •

(١٥) وليام لىلى : المدخل الى علم الأخلاق - ترجمة د. على

عبد المعطى محمد ص ٣٦ •

(١٦) المعجم الفلسفى ص ١٢٤ •

ويعرف أيضا بأنه « العلم المعيارى لسلوك الكائنات البشرية التى تحيا فى المجتمعات » • وأنه العلم الذى يحكم على مثل هذا السلوك بالصواب أو الخطأ ، بالصلاح « أو بالصلاح » (١٧) •

ويذكر « كارادى فو » تعريفا لعلوم الأخلاق قال به صدر الدين الشروانى حيث حده بأنه « علم بالفضائل وكيفية اقتنائها لتتخلى النفس بها ، وبالرذائل وكيفية توقيها لتتخلى عنها » (١٨) •

فإذا أضفنا الى هذه التعريفات عبارة « على أساس من الوحي » لخرجنا بتعريف لعلوم الأخلاق الاسلامى • اذ يمكن تعريف علم الأخلاق الاسلامى بأنه « علم يبحث فى الأحكام والمعايير والمبادئ التى عن طريقها يوصف السلوك الانسانى بأنه فضيلة فتقتنى أو أنه رذيلة فيتخلى عنها ، حتى تزكو النفس الانسانية ، وذلك على أساس من الوحي الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم » •

فهذا العلم يدور حول تنظيم سلوك الانسان مع نفسه ، ومع الله ، ومع الناس ، وينبه الانسان الى الخير ليسعى اليه ويحرص عليه ، والى الشر ليتعد عنه ويتجنبه • وعلى الرغم من ربط علم الأخلاق بالدين فانه سيظل علما عقليا •

وأشهر تقسيمات هذا العلم أنه ضربان : « عملى : ويسمى علم السلوك ، أو الأخلاق العملية ، ونظرى : وهو الذى يبحث فى حقيقة الخير والشر والقيم الأخلاقية من حيث هى » (١٩) •

غير أن « وليام ليلى » يورد لنا ستة أنواع من علوم الأخلاق أو ستة أنواع من الأنساق الأخلاقية هى :

-
- (١٧) وليام ليلى : المدخل الى علم الأخلاق ص ٣٥ •
 - (١٨) دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ٤٣٦ - ٤٣٧ •
 - (١٩) المعجم الفلسفى ص ١٢٤ •

- ١ - العلم الوضعي للأخلاق : وهو الذى يصف المعايير الأخلاقية للناس فى المناطق المختلفة وطبقا لتنوع سنوات العمر .
- ٢ - العلم المعيارى للأخلاق : وهو الذى يقرر صحة المعايير الخلقية .
- ٣ - الفلسفة الأخلاقية : وهى تبحث صحة تلك المعايير من خلال موضعها فى إطار كل عام .
- ٤ - علم الأخلاق التطبيقى : وهو يطبق المعايير الأخلاقية الصحيحة على حالات جزئية معينة .
- ٥ - التهذيب الأخلاقى : وهو يستهدف تحسين السلوك وتشذيبه .
- ٦ - فن مزاولة الحياة الصالحة (٢٠) .

أما عن المنهج الأخلاقى ومن أين نأخذه ، فأنى أقول لا بد من أخذه من القرآن والسنة فهما المصدران الأساسيان لكل تشريع ونظام . وإذا كان الفيلسوف الانجليزى « جون لوك » يذكر « أن الله لم يكن يضمن على البشرية بهذه الدرجة ، وذلك بأن يجعلهم مخلوقات من ذوات الرجلين ثم يترك الأمر لأرسطو كى يجعلهم كائنات عاقلة ... لقد منح الله الانسان عقلا يفكر به دون أن يحتاج الى تعلم طرق القياس » . فأنى أقول : ان الله لم يترك الأمر لأساتذة الأخلاق وفلاسفته لكى يبينوا لنا الفارق بين الخير والشر ، اذ ليس من شأن هؤلاء الرجال أن يخلقوا المعايير الأخلاقية من لا شئ أو من فراغ .

٣ - موضوع علم الأخلاق

موضوع علم الأخلاق هو السلوك الانساني من حيث كونه خيراً أو شراً • وهو في دراسته لهذا السلوك يقوم وفق معيار أخلاقي معين ، أى أن هذا العلم يهتم بالقيم لا الوقائع ، فهو يدرس ما يجب أن يكون لا ما هو كائن بالفعل ، أما ما هو كائن فعلاً من السلوك الانساني فقد تكفل به علم النفس وعلم الاجتماع •

فموضوعه أحكام تقويمية يقاس بها السلوك وليست أحكاماً تقريرية • ولهذا فان علم الأخلاق يندرج في الفلسفة تحت مبحث الشيء جميلاً ، فان علم الأخلاق يدرس الخير في صورته المتعددة القيم التي هي الحق والخير والجمال ، فاذا كان المنطق يدرس معيار الصدق ، واذا كان علم الجمال يبحث عن ماهية الجمال أو ما به يكون المتنوعة وهو يهدف الى فهم طبيعة الحياة الخلقية •

هذا ، ويكاد يكون أمر اصدار الحكم بأن هذا الفعل خير وذاك شر قاصراً على علم الأخلاق باستثناء علم ما بعد الطبيعة • ومن هنا فان علينا أن نميز بين ثلاثة أنواع من السلوك الانساني •

أما الأول فهو السلوك الناتج عن الغرائز الطبيعية والعادات الفردية • وهذا النوع ثابت الى حد كبير ، ولكن هذا الثبات يمكن أن يكون نسبياً في الانسان ، فبكثير من الجهد يستطيع الانسان أن يتحرر من بعض غرائزه بكبتها أو بالقضاء عليها وذلك في أحوال نادرة ، لأن مقاومتها صعبة وعسيرة جداً •

والنوع الثاني هو السلوك الناشئ عن العادات الاجتماعية والعرف الاجتماعي • وهذا النوع أيضاً فيه الكثير من الثبات والجبر ، مع اختلاف العادات الاجتماعية من بيئة الى أخرى زماناً ومكاناً •

أما النوع الثالث فهو السلوك الناشئ عن العادات الأخلاقية • وهذا النوع يلتزم به الإنسان خوفا من العقاب الذي يحل به من المجتمع ، أو من الله ، كما أنه يجد من نفسه باعثا داخليا على القيام به وهو ما يسمى بالشعور الخلقى • وأهم صفات هذا الشعور هي، تحبيز السلوك أو استنكاره (٢١) •

٤ - غاية الأخلاق

غاية الأخلاق هي السعادة التي تظل الفرد وتظل الأمة • وهذه السعادة لا نجدها الا في النظام الأخلاقي الاسلامي • وفي هذه الحالة تكون سعادة محققة لا أوهاما ملفقة ، وسعادة ماثلة لا أطيافا زائلة ، وسعادة تجعل الحياة الدنيا جنة صغيرة يجتازها الناس الى الحياة الآخرة ، وهي الجنة الكبيرة التي ينعمون فيها بما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر •

فعندما ندرس الاسلام من جميع جوانبه نجد أن نظامه قد وضع لمصلحة الانسان وسعاده ، لا في الحياة الدنيا فقط بل في الحياة الآخرة أيضا ، كما نجد أيضا أن حقيقة السعادة في هذه الحياة هي الشعور والاحساس الدائم للانسان بخيرية الذات وخيرية الحياة وخيرية المصير الذي ينتظره •

واذا كان هدف الأخلاق في الاسلام هو السعادة ، فان هذا لا يعنى أنه يقول بمذهب السعادة في رأى الفلاسفة ، اذ مفهوم السعادة في الاسلام مفهوم خاص • فالسعادة في نظر الاسلام تختلف من حيث الزمان والمكان ، ومن حياة الى أخرى ، حيث السعادة في الحياة

٢١) سهير مختار : محاضرات في الأخلاق ص ٢٠ - ٢٥ وقارن :

د • فيصل بدير عون : دراسات في الفلسفة الخلقية ص ٧ - ٢١ •

الدنيا تختلف عن سعادة الحياة الأخرى ، كما أن الاسلام يستهدف تحقيق السعادة في الحياة الآخرة أكثر مما يستهدفها في الحياة الدنيا ، ويضاف الى هذا — أيضا — أن السعادة التي أرادها الاسلام لا تقتصر على جانب واحد فقط ، وانما تشمل الجوانب الروحية والعقلية والنفسية والمادية في الانسان . وبطبيعة الحال كلما كان هناك اتساق بين هذه الجوانب كلما زاد نطاق السعادة كما وكيفا .

غير أنه يجب أن نلفت النظر الى أن الأخلاق في نظر الاسلام ، وان كانت ترمى الى تحقيق السعادة للانسان ، فان هذا الهدف هدف الأخلاق ، لا هدف الذات الفاعلة ، فان هدف الذات ينبغي ألا ينحصر في تحقيق الانسان السعادة لنفسه أو لغيره ، وانما ينبغي أن يكون هدفه الأول هو الله وحده ، انه يجب أن يؤدي الأعمال الأخلاقية لأنه مأمور بها من قبل خالقه وأن يقصد بها وجهه لا وجه أحد ولا وجه السعادة أو تحقيق السعادة .

هذا هو الهدف أو الغاية من الأخلاق نفسها ، أما عن المهدف من الدراسة الأخلاقية فاننا نجد وجهات نظر مختلفة تتعلق بموضوع هذه الدراسة الأخلاقية .

فهناك وجهة نظر تؤكد أن علم الأخلاق هو دراسة نظرية صرفة تهدف الى فهم طبيعة الأخلاق دون أن يكون لها أى تأثير على سلوك دارسها .

وتؤكد وجهة نظر ثانية على أن المهدف الأساسي من الأخلاق هو التأثير على سلوكنا الواقعي .

وتؤكد وجهة نظر ثالثة ، ويؤيدها أغلب المفكرين أنه بينما تكون الأخلاق علما نظريا أساسا يهتم بكشف الحقيقة في الأمور الأخلاقية.

فيجب أن يبقى في مسار البحث الأخلاقي نقدا دائما للمعايير الأخلاقية الموجودة ، ولذلك يصبح علم الأخلاق موضوعا علميا برغم طبيعته (٢٢)

٥ - ضرورة الأخلاق

إذا كانت الأخلاق ضرورية في نظر المذاهب والفلسفات الأخرى فهي في نظر الاسلام أكثر ضرورة وأهمية ، ولهذا فقد جعلها مناط الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة ، فهو يعاقب الناس بالمهلك في الدنيا لفساد أخلاقهم « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا » (٢٣) ، « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (٢٤) ، « ان الأبرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم » (٢٥) . بل ان الاسلام يخضع الأعمال العلمية للمبادئ الأخلاقية ، سواء كان ذلك في مجال البحث أو في مجال النشر لتوصيله للناس .

لقد أهتم الاسلام بالأخلاق لأن الأخلاق أمر لا بد منه لدوام الحياة الاجتماعية وتقدمها من الناحيتين: المادية والعنوية. فالإنسان دائماً بحاجة ماسة الى نظام خلقى يحقق للإنسان حاجته الاجتماعية ويوقف أمام ميوله ونزعاته الشريرة ويوجهه الى استخدام قواه في مجالات يعود نفعها على نفسه وعلى غيره بالخير .

ان الاسلام يدرك تمام الادراك ماذا يحدث لو أهملت المبادئ الأخلاقية في المجتمع وساد فيه الخيانة والغش والكذب والسرقة وسفك

(٢٢) وليام ليلي : التدخل الى علم الأخلاق ص ٣١٧ .

(٢٣) سورة يونس ١٣ .

(٢٤) سورة هود ١١٧ .

(٢٥) سورة الانفطار ١٣ - ١٤ .

الدماء والتعدى على الحرمات والحقوق والفسق بكل أنواعه ، وتلاشت المعانى الانسانية فى علاقات الناس ، فلا محبة ولا مودة ولا نزاهة ولا تعاون ولا تراحم ولا اخلاص •

انه بلا شك سيكون مجتمعا لا يمكن للحياة أن تدوم فيه ، حيث ستكون جحيما لا يطاق ، وسيتحول الناس الى وحوش ضارية وسيشقون شقاء ليس بعده شقاء ، لأن الانسان بطبعه محتاج الى الغير ، وبطبعه ينزع الى التسلط والتجبر والتكبر والأثانية والانتقام ، فاذا نزع الى ذلك أهلك الحرث والنسل « واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » (٢٦) •

ان سيادة خلق مثل « العدالة » فى حياة المجتمع سوف يكون له آثاره العظيمة ، اذ سيؤدى الى سيادة الأمن والاستقرار والمحبة والمودة والنشاط العملى والفكرى ، الأمر الذى يؤدى بدوره الى ازدهار الحياة وتمدينها •

أما اذا كان الأمر بالعكس — والعياذ بالله — وانعدمت العدالة فسوف يؤدى هذا بالضرورة الى انتشار الرعب والحقد والاضطراب والتناحر وقلة الانتاج • وفى هذا يقول الماوردى فى القاعدة الثالثة من القواعد التى تصلح بها الدنيا : « وأما القاعدة الثالثة فهى عدل شامل يدعو الى الألفة ويبيعث على الطاعة وتعمر به البلاد وتنمو به الأموال ويكثر معه النسل ويأمن به السلطان •• وليس شئ أسرع فى خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور » (٢٧)

(٢٦) سورة البقرة ٢٠٥ •

(٢٧) أبو الحسن الماوردى: كتاب أدب الدنيا والدين ص ١٣٠-١٣١

ان تلاشى وضياح العدالة وانتشار الظلم في أى مجتمع يؤدين الى فساد الحياة وخراب العمران كما يرى ابن خلدون حيث يقول في الفصل الذى جعل عنوانه : « فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران » : « اعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها ، لما يروونه حينئذ من أن غاياتها ومصيرها انتهابها من أيديهم • وإذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى فى ذلك • وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى فى الاكتساب ••• والعمران ووفوره ونفاق أسواقه انما هو بالأعمال وسعى الناس فى المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين • فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران ، وانتقضت الأحوال ، وابتذر (تفرق) الناس فى الآفاق •• فى طلب الرزق •• فخف ساكن القطر ، وخلت دياره ، وخربت أمصاره ، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان •• ومن أشد الظلمات وأعظمها فى افساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق • وذلك أن الأعمال من قبيل المتمولات •• وأعظم من ذلك فى الظلم وافساد العمران والدولة القسوط على أموال الناس ، بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والاكراه فى الشراء والبيع •• ويؤول ذلك الى تلاشى الدولة وفساد عمران المدينة •• ويترك هذا الخلل على التدرج ولا يشعر به •• وأما أخذها مجانا والعدوان على الناس فى أموالهم وحرمانهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم فهو يفضى الى الخلل والفساد دفعة ، وتنتفض الدولة سريعا بما ينشأ عنه من المهرج المفضى الى الانتقاض » (٢٨) •

فالأخلاق ضرورية لأنها تعمل على دوام الحياة الاجتماعية وتماسكها ، ولأنها تعمل على تقدم وازدهار الحضارة من الناحية العلمية.

والعمرانية • وتمتاز الأخلاق الإسلامية بأنها تدفع الى التكامل في البناء الاجتماعي الذي يقوم ارساء العلاقات الانسانية بين البشر على أساس الايمان والاخلاص ، وتدفع الى التكامل في ميدان العمل والصناعة والمعرفة ، وكلا المتكاملين ضرورة لابد منهما لايجاد حياة انسانية سعيدة •

ومن هنا فالأخلاق الإسلامية ضرورة ، لأننا نكون بها أرقى الأمم. وأسعدها ، لأنها تدعو كل انسان الى أن يكون انسانا عاملا خيرا عالما فاضلا ، ولا تتقدم الأمم الا بذلك •

هذه هي ضرورة الأخلاق بصفة عامة والأخلاق الإسلامية بصفة خاصة ، فما هي ضرورة الدراسة الأخلاقية كعلم ؟

لا شك أننا نحتاج في دنيانا الى عدة مبادئ رئيسية وأساسية ، لتنظيم علاقتنا بالله عز وجل وبالناس وبأنفسنا • ويلزم أن تكون هذه المبادئ متوافقة مع طبيعة الانسان وعقله وغير متعارضة مع مصلحة الجماعة أو الأعراف والتقاليد السائدة ، فضلا عن أنها غير متعارضة مع الدين ، كما أنها لابد أن تتناول كل جوانب حياتنا ، اذ هي مبادئ مقومة لنا ومنظمة لسلوكنا وصالحة لأن تكون مبادئ عامة وكلية • تلك المبادئ هي ما يضمه علم الأخلاق •

واذا كان في وسع الانسان أن يستغنى طول حياته عن بعض مسائل العلم والمعرفة ، فلا تخطر له ببال أبدا ، بل ربما يستطيع الاستغناء عنها جميعا فترة طويلة أو قصيرة من الزمن ، غير أنه لن يستطيع انسان ما أن يخلو همه من المسألة الأخلاقية طرفة عين (٢٩) •

فعلم الأخلاق علم معيارى ، يضع المبادئ التى ينبغى أن يكون عليها السلوك الانسانى ، كما يضع المعايير الصحيحة لتقويم هذا السلوك فهو العلم الذى يعلمنا كيف نحترم ذواتنا ونحب غيرنا حبنا لذواتنا ومن ثم فلا غنى لانسان عنه فى أى مكان وزمان ، فهو قريب الصلة بالانسان بل انه أقرب العلوم اليه •

يقول « مالبرانش » : « لا يوجد علم له كثير اتصال بنا أكثر من الأخلاق ، ذلك بأنه هو الذى يعلمنا واجباتنا نحو الله والملك والأهل ، وجميع ما يحيط بنا بصفة عامة ، كما يعلمنا الطريق الذى يجب سلوكه لنكون سعداء سعادة خالدة ، ولهذا فكل الناس فى حاجة ماسة لتعلمه » (٣٠) •

فاذا كانت دراسة الأخلاق بصفة عامة ضرورية فان دراسة علم الأخلاق الاسلامى أكثر ضرورة • ذلك أن منبع الأخلاق فى الاسلام ليس العقل أو القلب أو الفرد أو المجتمع وانما منبعه الله ووحيه كما جاء بذلك المدين الاسلامى الحنيف الذى نزل لينظم حياتنا ومعاملاتنا وعلاقتنا بأنفسنا وباللله وبغيرنا من الناس •

لقد جاء الاسلام بأسس ومعايير يتحتم علينا السير وفقاً لها ، وهى ليست أسساً ومعايير وضعية أو نلفيقية ، وانما هى وحى يوحى على هيئة أوامر ونواه ومباحات ومحظورات وطاءات ومعاص ، فمن أطاع الله أثابه ومن عصاه عاقبه وجازاه •

واذا قارنا علم الأخلاق الاسلامى بالمذاهب المتعددة التى مر بها علم الأخلاق فاننا سوف نقتبين مدى ضرورة علم الأخلاق الاسلامى ،

اذ نجد المذاهب متخبطة ، فمذهب يدعو الى اللذة وآخر يدعو الى المنفعة
وثالث يدعو الى الواجب ورابع يدعو الى المحافظة على الكيان البشرى ،
وهكذا •

وتمتاز الأخلاق الاسلامية بأنها واقعية عملية وليست مثالية
كالأخلاق عند سقراط وأفلاطون ومن سار على نهجهما • كما أنها
تؤكد حرية الانسان واختياره ومسئوليته عن فعله • وتتميز أيضا
بأنها ايجابية شاملة بعيدة عن الانحراف والغلو • وهى — أيضا —
صالحة لكل زمان ومكان •

فالأخلاق الاسلامية تنمو فوق أى مذهب فلسفى أو اجتماعى أو
سياسى أو أى مذهب وضعى مهما كان شعاره •

الفصل الثاني

أسس الأخلاق

١ - الالتزام الخلقى

يعد « الالتزام » حجر الزاوية في الفلسفة الخلقية الحقّة ، اذ بدون الالتزام لن تكون هناك مسؤولية ، وبدون مسؤولية لا توجد عدالة ، وبدون عدالة تنتشر الفوضى ، وتسود الممجية ، ويفسد النظام • فلا يمكن أن نتصور مبدأً أو قاعدة أخلاقية بدون المزام •

والالتزام هو السلطة الآمرة والقوة القاهرة والضرورة التي يستشعرها كل فرد فيعمل ما ينبغي عمله دون قسر أو ارغام آخذاً نفسه بما يمليه عليه القانون الأخلاقي •

١ - مصادر الالتزام :

اختلف فلاسفة الاخلاق في تحديد مصدر الالتزام ، فمن قائل ان مصدر الالتزام هو الجماعة ومن قائل انه الدين ، ومن قائل انه العقل ، ومن قائل انه الوجدان أو الحاسة الخلقية ، ومن قائل انه دافع المنفعة ، ومن قائل انه قوة الضغط الاجتماعي وقوة الجذب الانسانية المستمدة من العون الالهي •

أما عن مصدر الالتزام في الاسلام ، فاننا نجد الاسلام يعتبر الله ورسوله مصدر الالتزام في الدرجة الأولى • فالله خالق الانسان وواضع نظامه الاخلاقي ، والعالم بما توسوس به نفسه ، والمراقب له في سلوكه وأعماله ، والرسول منفذ لوصي الله •

ثم تأتي سلطة الجماعة أو الاجماع في الدرجة الثانية ، لأن الاسلام يعد المجتمع مسؤولاً عن انحراف بعض أفرادهم • ومن أجل هذا فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولهذا كانت الأمة الاسلامية خير أمة أخرجت للناس •

(٣ - الأخلاق)

وقد اعتد الاسلام — أيضا — بالعقل والادراك كمصدر من مصادر
الالزام الخلقى ، لأن العاقل يفعل الخير ولا يفعل الشر •

كما اعتد أيضا بالضمير الخلقى أو الحاسة الخلقية التى تميز بين
ما هو جميل من السلوك وبين ما هو قبيح •

يضاف الى ذلك أن الاسلام يعتد — أيضا — بالدوافع النفعية
كمصدر للالزام الخلقى • فالانسان بطبيعته يحب الخير والنفع لنفسه •

ومن هنا نعلم أن هناك مصادر متعددة للالزام الخلقى فى الاسلام،
وان كانت كلها ترجع الى مصدر واحد وهو الله سبحانه وتعالى •

٢ — خصائص الالزام الخلقى :

تميز الالزام الخلقى فى الاسلام بخصائص مهمة قد لا نجدها
واضحة فى أى فلسفة أخلاقية أخرى بمثل هذا الوضوح الذى
نجده فى الاسلام •

أ — كون الفعل مستطاعا :

فالاسلام يراعى طاقة البشر فى الالزام الخلقى ، ومن ثم فلم
يكلفهم بما هو فوق طاقتهم ، اذ « لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها » (١)
« لا يكلف الله نفسا الا وسعها » (٢) ، « فاتقوا الله ما استطعتم » (٣)

وهذا مبدأ تقتضيه الفطرة السليمة اذ لو كلف الانسان فوق طاقته

(٢) سورة البقرة. ٢٨٦ •

(١) سورة الطلاق ٧

(٣) سورة التغابن ١٦

الكان في ذلك ظلم له ، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا » ان الله لا يظلم
الناس مثقال ذرة « (٤) •

ب - اليسر في التطبيق العملي :

أما الخاصية الثانية للالزام الخلقى في الاسلام فهي اليسر في
التطبيق العملي ورفع الحرج عن الناس •

فليست الأخلاق الاسلامية متمشية مع قدرات الناس واستطاعتهم
فحسب بل انها أسهل مما يستطيعونه • يقول الله سبحانه : « يريد الله
بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » (٥) ، « يريد الله أن يخفف عنكم » (٦)
« وما جعل عليكم في الدين من حرج » (٧) •

ج - مراعاة الحالات الطارئة :

فقد وضع الاسلام مخرجا للحالات التي يصعب فيها الالتزام
الخلقى • وهذا المخرج يكون تارة باعفاء المكلفين اعفاء كاملا ، وتارة
أخرى يكون باعفائهم اعفاء جزئيا ، وتارة ثالثة يكون مجرد ارجاء الفعل،
ورابعة يكون المخرج استبدال عمل يسير بآخر عسير •

غير أنه يلاحظ أن هذه الحالات الاستثنائية ضرورة فلا ينبغي أن
تتخذ ذريعة للتهاون في العمل الأخلاقى • كما أن الاسلام قد راعى في
هذه الاستثناءات الفروق الفردية بين الناس في الظروف المختلفة • وهذا
كله يدل على مرونة التشريع الاسلامى وأنه صالح لكل زمان ومكان •

(٤) سورة النساء ٤٠ •

(٦) سورة النساء ٢٨ •

(٥) سورة البقرة ١٨٥

(٧) سورة الحج ٧٨ •

د - التدرج في تحديد الواجبات :

لقد رتب الاسلام الأعمال الخلقية الى ما هو لازم وما هو ألزم ، فالأول فرض العين ثم فرض الكفاية ثم الواجب ثم السنة المؤكدة . ثم السنة غير المؤكدة ثم النوافل وأخيرا الكماليات . كما رتب المحرمات أو الشرور الى كبائر وصغائر ومكروهات وخلاف الأولى . ثم قسمها من ناحية أخرى من حيث الواجبات المحدودة وغير المحدودة والمؤقتة وغير المؤقتة . وحدد مسافة بين الخير والشر لا هي خير ولا هي شر ، وهي المباحات ، وأحد طرفيها متصل بالخير والآخر متصل بالشر ، وأمر الناس بالاتجاه الى الخير والابتعاد عن الشر .

٢ - المسؤولية الأخلاقية

ان المسؤولية الخلقية تترتب على القول بالالزام المخلقي ، اذ القول بالالزام ينتج عنه بالضرورة أمران :

الأول : هو أن هناك مسؤولية أخلاقية .

والأمر الثانى : أن هناك جزاء يترتب على هذه المسؤولية .

والمسؤولية تعنى أن يتحمل الانسان نتيجة أفعاله التى يلتزم بها أو قررها أو اختارها ، سواء أكانت هذه الأفعال ايجابية أو سلبية .

وهو فى هذا مسؤول أمام الله أولا ، ثم أمام ضميره والمجتمع الذى يعيش فيه ثانيا .

وأساس المسؤولية هو أن يكون الفرد أهلا للاضطلاع بمسؤولياته وأن يتحملها ملتزما بها . وهذا يعنى أن الفرد لابد أن يكون فاهما لطبيعة ذاته بصيرا بسلوكه وأهله مقدرنا لنتيجة تصرفاته ، يعرف نفعها وضرها على النفس والغير فى العاجل والآجل ، كما يعنى هذا أيضا أن يكون

للفرد حرية الارادة والاختيار والتصرف فيما يختاره ، وأن يكون قادرا على القيام بمسؤولياته وأفعاله •

ومن هنا فالحيوان غير مسئول عن تصرفاته ولا الأطفال الصغار لعدم توفر الشروط المسبقة فيهم •

وتنقسم المسؤولية الى قسمين : مسؤولية فردية ، ومسؤولية اجتماعية •

أما المسؤولية الفردية فلها مجالان : مجال باطنى وآخر ظاهرى •
والأول هو مسؤولية الارادة والتصميم والقصد ، اذ ليس من الضروري أن يخرج الفعل الى حيز الوجود ليكون الانسان مسؤولا عنه لقول الله سبحانه : « وان تجدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » (٩) فان ترك الفعل يعد فعلا أيضا • ولكن لا يدخل فى هذا حديث النفس وما ينطوى عليه من خطرات الخير ووساوس الشر • وأما المجال الثانى للمسؤولية فهو السلوك المحسوس ، كلما كان أم فعلا ، لكن يلزم أن يكون ناشئا عن قصد واختيار لقول الرسول صلى الله عليه وسلم « اذا ما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى » (١٠) •

فلا يدخل فى هذا السلوك الناتج عن اكراه أو اضطرار أو خطأ أو نسيان ، كما لا يدخل فيه أيضا سلوك النائم والصبي والمجنون حيث لا مسؤولية عليهم •

أما فيما يتعلق بالمسؤولية عن سلوك الغير أو المسؤولية الاجتماعية فاننا نجد أن الاسلام يؤكد أن الانسان مسئول عن نفسه وعن غيره • وما فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الا ترجمة للمسؤولية الاجتماعية • وقد صور لنا الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المسؤولية

(٩) سورة البقرة ٢٨٤ •

(١٠) رواه البخارى •

أبدع تصوير حين قال : « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثله .
قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان
الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو
أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فان تركوهم وما أرادوا
هلكوا جميعا . وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » (١١) .

وهذه المسؤولية أيا كانت ليست قاصرة على المسؤولية في هذه
الحياة الدنيا وكفى من حيث الجزاء والمكافأة ، بل ان المسؤولية الأصلية
هى المسؤولية في الحياة الأخرى التى يجازى فيها الانسان على ما قدم
بصورة عادلة ليس لها مثيل فى حياتنا الدنيا .

٣ - الجزاء الأخلاقى

الجزاء الأخلاقى نتيجة طبيعية للمسؤولية الأخلاقية . كما أنه
لازم لتحقيق العدالة بين الناس ، اذ شتان بين انسان يسعى بين الناس
بالفضيلة ، وانسان يؤذيهم بالرديلة فلا بد أن يلقي كل منهما جزاء فعله ،
واذا كان هناك جزاء لكل سلوك أخلاقى كان هناك تمسك بالأخلاق
والفضائل .

وهناك أنواع متعددة من الجزاء ، نذكر منها :

١ - الجزاء الالهى :

فالله - سبحانه يجازى المستقيم بالثواب ، ويجازى المنصرف
بالعقاب . ومجازاة الله للبشر دنيوية وأخروية ، وقد تقل وقد تكثر .

٢ - الجزاء الوجدانى :

وهو ما نحس به من مشاعر بعد أى سلوك . فنحن نشعر بالفرح

(١١) رواه البخالى .

والسرور بعد الفعل الخير ، ونشعر بالحزن والتأنيب بعد الفعل السيء
أو الشرير • وهذا الاحساس أو لشعور الذى يتحرك فى نفوسنا يختلف
من شخص الى آخر بطبيعة الحال •

هذا الاحساس الذى هو الوجدان أو الضمير قد يكون له من
التأثير ما ليس للجزاء المادى ، فان الجزاء المادى قد لا يكون مصيبا
أما الجزاء الوجدانى فانه مصيب ومستمر دائما •

٣ - الجزاء الطبيعى :

فالذى يخرج على النظام الأخلاقى سوف ينال جزاء طبيعيا •
وهذا الجزاء قد يرجع الى القوانين الطبيعية كالإصابة بالأمراض
السرية بسبب ارتكاب جريمة الزنا ، وقد يرجع الى قوانين الطبيعة
الاجتماعية فاذا تفشت جريمة القتل زال الأمن والطمأنينة ، بل زالت
الحياة •

٤ - الجزاء القانونى :

وهو العقوبة التى تحل بصاحب الخلق السيئ • والنظام العقابى
فى الجزاء الاسلامى يضم نوعين من الجزاءات هما :

أ - الحدود : وهى الجزاءات التى حددها الشرع بدقة وصراحة •

ب - التعزيرات : وهى متروكة لتقدير القضاة •

٥ - الجزاء الاجتماعى الأدبى :

ويقصد بهذا الجزاء الأدبى عدم الاعتداء بشخصية الفاسق
أو الشرير وعدم الثقة به ، ومن هنا لا تقبل شهادته ، ولا يجد الاحترام
والقبول من الناس ، وهذا أمر بالغ الصعوبة على النفس الانسانية •
يقول صلى الله عليه وسلم : « أنزلوا الناس منازلهم من الخير والشر » (٨)

(٨) اسماعيل العجلونى : كشف الخفاء ومزيل الالباس ج ١ ص ٢٤٩

هذا ومن الجدير بالذكر هنا أن نقول ان الاسلام ربط الأخلاق بالجزاء سواء كان عاجلا أو آجلا بشكل حاسم • وهو في ربطه هذا قد راعى الطبيعة الانسانية من حيث ماديتها ومعنويتها فجعل الجزاء كذلك ماديا ومعنويا • كما ربط الاسلام — أيضا — مصير الانسان في الدنيا والآخرة بالعمل الأخلاقي ، فصاحب الأخلاق الطيبة يسعد في الدارين وصاحب الأخلاق المردية يشقى كذلك في الدارين •

وبهذا تتميز الأخلاق الاسلامية من المذاهب الأخلاقية الأخرى ، شرعية كانت أو غربية ، دينية كانت أو وضعية •

٤ — النية والدافع

هي أحد الأسس الأخلاقية المهمة في الأخلاق الاسلامية • والنية تعنى اتجاه الانسان بقلبه الى اختيار أمر ما والمضي في تنفيذه بعزم ثابت لا يمنعه من التنفيذ الا أمر عائق خارج عن ارادته •

وهي معيار لتحديد قيمة العمل والحكم عليه بالخير أو الشر • فمن قصد بعمله وجه الله كان العمل خيرا واستحق صاحبه الثواب ، ومن كانت نيته لغير الله أو كانت نيته شرا كان شريرا واستحق الذم والعقاب •

أما اذا كان العمل عملا عاديا لا يستحق تقويمه بمعيار الخير والشر فلا حكم له الا بحسب النية ، فالذى يجعله خيرا أو شرا انما هو القصد والنية •

وبهذا المعنى ينقسم السلوك الارادى في الاسلام الى ما هو طاعة ، وإلى ما هو معصية وإلى ما هو مباح •

أما الطاعة فهي مرتبطة بالنية في أصل صحتها ، لأن النية شرط لصحة أداء واجبات الدين التي لا تكون كاملة الا اذا قصد بها

الانسان وجه الله وكانت خالصة له دون غيره ، وهذه هي مرتبة الاخلاص
وغاية الكمال الأخلاقي •

فالنية هي روح الفعل فاذا تجرد منها كان ميتا كما يقول ابن تيمية
رحمه الله • والواجبات اذا خلت من النية المقصود بها وجه الله كانت
رياء ونفاقا وجسدا ميتا لا روح فيه ولا وزن أو قيمة له •

وعلى العكس من ذلك فان الخير يتضاعف اذا تعددت نيات
الخير في أداء الواجب الأخلاقي •

وأما المعاصي فلا أثر للنية الحسنة في تغيير حكمها • فالذى يسرق
ليتصدق لا يعد عمله عملا خيرا ولا أثر للنية الطيبة هنا ، فلا تجعل
العمل خيرا ، فهو معصية ، بل ان القبح هنا يعد أمرا جسيما لاتخاذ
الشر وسيلة للخير مع أن الاسلام يحرص على نقاء الوسيلة والغاية في
كل سلوك •

وفيما يتعلق بالمباحات وهي كل ما لم يرد فيه أمر ولا نهى من
الشرع ، فان وجدت فيها النية أخذت حكم النية فيها • فان فعلها
الانسان بنية طيبة مراعيًا لوجه الله فيها كانت أفعالا خلقية وطاعات
يثاب عليها • فالمباحات يمكن أن تكون طاعة أو معصية بحسب النية •

تلك هي النية وعلاقتها بالسلوك الارادى في الاسلام ، ويكفى أن
نعلم أن مدار الأعمال كلها في الاسلام يقوم على هذه النية •

غير أننا يجب أن نلاحظ أن تقسيم السلوك الى طاعة ومعصية ومباح
أمر سهل من الناحية النظرية أما الواقع فالأمور فيه متداخلة ومعقدة ،
فقد تختلط البواعث على الفعل فلا نستطيع تحديد الباعث الأصلي
على هذا السلوك أو ذاك بمعنى أننا لا نستطيع الجزم بأن باعثا منفردا
يكون كافيا في دفع الانسان الى عمل ما • فمن العسير على من يقبـلـم

عونا لمحتاج أن يعرف على وجه التحديد ما اذا كان باعته على الفعل
أمرا شخصا أو انسانيا أو دينيا أو هو يجمع كل هذه البواعث •

ان هذا أمر يتوقف عليه بيان ما في نفوسنا من خير أخلاقى أو زيف
أو رياء • ومن هنا فنحن بحاجة الى معيار نختبر به بواعثنا ، ونميز به
ما هو شخصى وما هو أخلاقى منها •

وقد وضع الامام الغزالى مقياسا يختبر به الانسان سريرته
وبواعثه ليتعرف حقيقتها • فقد رأى أن على الفرد الذى يتنازع ارادته
باعث الأخلاق وباعث المصلحة ويختلط عليه الأمر فى تحديد المـحـرك
الأصلى فى دفعه الى العمل عليه أن يختبر أثر كل باعث على حدة وكأنه
الباعث الوحيد على الفعل ثم يحلل علاقته بالباعث الآخر ، وأن يقيس
شدة باعته الأخلاقى بالنسبة للباعث الآخر ، فاذا تساوى الباعثان كان
العمل محايدا لا يوصف بالأخلاقية أو عدمها ، وان رجحت كفة الباعث
الأخلاقى كان فى الفعل من الأخلاق بقدر شدة باعته ، واذا رجحت كفة
الباعث الشخصى فقد الفعل قيمته الأخلاقية •

• — هل القيم الخلقية تتطور ؟

يحلوا لكثير من الناس أن يتحدث عن التقدم والتطور والحدثة
والمعاصرة ، والبعض من هؤلاء يريد فعلا أن ننطلق فى هذا من واقع
حياتنا وتراثنا وقيمنا الاسلامية الأصيلة • والبعض الآخر يريد فقط
أن ننسلخ عن هذه القيم وهذا التراث ونقبل القيم العلمانية الغربية
المادية فى أساسها •

ويجب علينا أن نفهم هنا ما المقصود بالتطور ، وهل القيم
الخلقية نسبية متطورة ؟

مفهوم التطور :

مصطلح التطور جديد في اللغة العربية ، وهو مشتق من كلمة « طور » التي تعنى الحال والضرب والتارة والمخلق المختلفة ، والتدرج والتنوع والتناسق والحد والغاية والانتقال من شيء الى شيء آخر ، والظهور التدريجى * ومن الناحية الاصطلاحية فهو يعنى شيئين : نظرة شاملة للكون في تدرجه وترتيب ظهوره ، وأن الكائنات الحية نشأت من أصل واحد أو عدة أصول نشوءا تدريجيا متغيرا مستمرا ، وهى تبدأ من البسيط الى المركب ، ومن الأدنى الى الأعلى ، بغية الوصول الى الكمال (١٢) * أو بعبارة أخرى هناك تطور كونى عام ، وهناك تطور عضوى يتعلق بالكائنات الحية *

فالتطور يشمل الحياة النباتية والحيوانية والانسانية ، والمجتمع الانسانى وتركيبه ، والعلاقات الاجتماعية ، والنظم السياسية والاقتصادية والتربوية وغير ذلك ، كما يشمل القيم الخلقية والمبادئ التشريعية ، وكذلك الوسائل المادية والفنية من أدوات وآلات وغيرها *

وفكرة التطور تنسب عادة الى (تشارلز دارون — ١٨٠٩ — ١٨٨٢) غير أن الواقع أنها قديمة جدا ، فقد أخذها اليونان عن قدماء المصريين *

والحق أنه لم يسلم بهذه الفكرة كثير من العلماء حتى انها لم تزد على كونها فرضا من الفروض في نظرهم ، وقد وجهت اليها انتقادات كثيرة من علماء التطور أنفسهم ومن المفكرين ومن المتدينين (١٣) *

(١٢) د . محفوظ عزام : نظرية التطور عند مفكرى الاسلام —

دراسة مقارنة ص ١٩ *

(١٣) لمعرفة هذا يرجع الى كتابنا « نظرية التطور عند مفكرى

الاسلام » السابق الذكر *

على كل حال نتج عن القول بالتطور في الكائنات الحية القول بتطور القيم الخلقية ، بمعنى أن القيم الخلقية متغيرة متبدلة ويكون معيارها هو المشهورة أو الهوى ورغبات الانسان .

وقد دعا الى التطور في الشرق بعض الباحثين على خلاف بينهم في مقدار الخروج عن اطار الاسلام . وقد تصدى لهؤلاء كثير من الغيورين على دينهم وعقيدتهم وقيمهم .

فمن الذين دعوا الى التطور الشامل هادفين الى هدم الاسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا : شبلى شميل ، وقابيل آدم ، وسلامة موسى ، واسماعيل مظهر ، وسير سيد أحمد خان والشيوخيون جميعا ، والغالبية الساحقة من المشتغلين بعلم الاجتماع .

ومن الذين تصدوا لمواجهة هذه الفكرة : جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد رضا آل العلامة المتقى الأصفهانى . وأبو الأعلى المورودى ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا وسيد قطب وغير هؤلاء .

أما وجهة التطور في القيم الخلقية عند من نادى بها فانها تعنى شيئا واحدا هو اتخاذ القيم الخلقية الأوروبية وتبنيها وهجر القيم الاسلامية التى تتعارض معها .

ومن المعروف أن القيم الأخلاقية الأوروبية الحديثة والغربية بصفة عامة انما تقوم على الأنانية والمنفعة المادية الحسية . وفى ذلك طمس للقيم الخلقية الاسلامية وتعطيل للشريعة الاسلامية ومحو لمعالم الشخصية الاسلامية .

ان الاسلام ليس ثابتا على طول الخط وليس متطورا أيضا على طول الخط ، وانما فيه ثوابت ومتغيرات . والثوابت لا مجال فيها للتطور ، والمتغيرات هى محل التطور بحسب الزمان والمكان .

ان التطور في الاسلام يعنى حل المشكلات الحياتية والاجتماعية والثقافية والسياسية التى تواجهها الأمة دون خروج على النصوص الدينية أو التعسف فى تأويلها ، ودون نظر الى موافقة أو عدم موافقة التطورات التى أحدثتها أية أمة أخرى •

والقيم الخلقية الثابتة هى القيم الخلقية المستندة الى نصوص قطعية • وما لا يستند الى نصوص قطعية فهو محل تغير وتطور ، بشرط ألا يتعارض مع ما هو ثابت • ومعنى هذا أن كل القيم الخلقية ثابتة ، لأنها داخلية تحت أحكام الشرع ، ومادامت ثابتة فانها لا تتغير ولا تتبدل بتبدل الأزمان والأماكن والآراء • ودعاوى تطويرها أو تبديلها أو هجرها كلها دعاوى باطلة تهدف الى هدم القيم نفسها •

فالعدل والرحمة والتواضع والعفة وغيرها من القيم الخلقية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل •

البَابُ الثَّانِي

الأخلاق العملية

الفصل الأول : من الأخلاق الفاضلة

الفصل الثاني : من الأخلاق غير الفاضلة

الفصل الأول

من الأخلاق الفاضلة

١ — أداء الأمانة

أداء الأمانة خلق اسلامي يعنى أن المسلم يتحمل المسؤولية في كل عمل يؤديه سواء كان هذا العمل متعلقا بالله أو بالناس .

وقد أمر الاسلام أن تؤدى الأمانات الى أهلها حيث يقول جل شأنه : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (١) .

فالأمانات — اذن — تشمل أداء حقوق الله وحقوق الناس والكائنات الأخرى . أما حقوق الله فهي أن نؤمن به ربا واحدا ، وأن نعبد وحده ، وأن نعمل وفق كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . وأما حقوق الناس والكائنات الأخرى ، وهى فى حقيقتها تعد أداء لحقوق الله ، فتشمل دوائر الأسرة والمجتمع المسلم ، والمجتمع الانسانى بأسره ، والبيئة الطبيعية بما تشتمل عليه من حيوان ونبات .

ونبدأ أولا ببيان حقوق الناس أيا كانوا ، أى حقوق الانسان، سواء كان هذا الانسان مسلما و غير مسلم ، قريبا أو غير قريب ، شرقيا أو غربيا . ثم نتحدث بعد ذلك عن حقوق الطبيعة وحقوق الحيوان .

ومما يجدر الإشارة اليه أن الحديث عن الحقوق يعنى الحديث عن الواجبات أيضا لأن ما هو حق لانسان هو واجب على آخر ، أى أن ما هو حق من ناحية هو واجب من ناحية أخرى .

(أ) أما حقوق الانسان فنوجزها فيما يلى :

١ — حق الانسان فى أن يحيا :

الحق الأول من حقوق الانسان هو حق الحياة الذى أقره الاسلام

منذ أربعة عشر قرناً أو يزيد ، أى قبل أن يولد اعلان « الأمم المتحدة » ،
عن « حقوق الانسان » بألف ورأبعمائة عام الا قليلا .

واذا كان هذا الحق قد جاء موجزا فى المادة الثالثة من اعلان
« حقوق الانسان » فان الاسلام قد فضله وجعله حقاً مقدساً فلا يجوز
لأحد أن يعتدى على حياة أحد أو المساس بها بأى شكل من الأشكال .
فقد قال تعالى : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما
قتل الناس جميعاً ومن أحيها فكأنما أحيى الناس جميعاً » (٢) .

وهذا الحق لا يسلب من الانسان الا بالاجراءات التى يقررها
الشرع الاسلامى ونظامه .

فالقائمة الانسانية لها احترامها فى الاسلام ، فهو يحمىها فى
الحياة وفى الممات . اذ من حق الانسان اذا توفى أن نترفق بجثمانه
ونكرمه لقول لنبي صلى الله عليه وسلم : « اذا كفن أحدكم أخاه
فليحسن كفته » (٣) . بل يجب أن تستر عيوبه الشخصية وسوءاته
فلا نطلع أحداً عليها بلعن أو سب للميت لقوله عليه السلام : « لاتسبوا
الأموات فانهم أفضوا الى ما قدموا » (٤) . فمن حق الانسان الميت
أن يحترم أيضاً فلا يفضح بذكر عيوبه وسوءاته .

٢ — حق الانسان فى أن يعيش حراً :

فاذا كان الاسلام يقدس حياة الانسان ، فانه أيضاً يقدس حريته
سواء بسواء . اذ الحرية فى الاسلام صفة طبيعية للانسان يولد بها

(٢) سورة المائدة ٣٢ .

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

(٤) رواه البخارى .

وتظل الى أن يموت عليها • فما من مولود الا ويولد على الفطرة التي خلقه الله عليها •

ومن هنا فلا يجوز لانسـان أن يعتدى على حرية انسان آخر ، مادام قد ولد بهذه الصفة الطبيعية • ولهذا قال عمر رضى الله عنه قوله الشهيرة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » (٥) •

فاذا كان الأمر كذلك فانه يجب توفير الحماية لحرية الانسان فلا يجوز أن تقيد أو يحد منها الا بحسب ما يقتضيه الشرع الذى نزل أصلا لمصلحة الانسان •

لقد سبق الاسلام بهذا « الاعلان العالمى عن حقوق الانسان » الذى جاء فى المادة الأولى منه « يولد الناس جميعا أحرارا متساوين فى الكرامة والحقوق » ، وجاء فى المادة الثالثة : « لكل انسان الحق فى الحياة والحرية » (٦) •

واذا كان الاسلام يمنع أن يعتدى انسان على حرية انسان آخر ، فانه فى الوقت نفسه يمنع أن يعتدى شعب على حرية شعب آخر، أو أن تعتدى أمة على أمة أو دولة على دولة، فاذا حدث هذا فللمتعدى عليه أن يقاوم هذا العدوان وأن يسترد حريته بما يستطيع من وسائل وامكانات وعدة وعتاد « وإن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » (٧) • وعلى المجتمع الانسانى أن يساند من يجاهد فى سبيل حريته ، وعلى المسلمين

(٥) قالها عمر بن الخطاب عندما شكوا اليه واحد من رعايا مصر

لظلم وقع عليه من ابن وإلى مصر •

(٦) أقر الاعلان العالمى لحقوق الانسان فى العاشر من ديسمبر ١٩٤٨.

(٧) سورة الشورى ٤١ •

واجب لا يمكن أن يتخلوا عنه ، فهم خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتنتشر السلام والأمن والحرية في ربوع العالم بأسره •

٣ - حق الناس في المساواة

مادام الناس جميعا يرجعون الى أصل واحد فلا بد أن يكونوا متساوين في القيمة الانسانية • فالجميع يرجع الى آدم ، وآدم يرجع أصله الى التراب « كلكم لآدم وآدم من تراب » (٨) •

وميزان التفاضل بين الناس انما يكون بحسب الأعمال التي يؤديها كل منهم « ولكل درجات مما عملوا » (٩) ، ويكون بحسب التقوى « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (١٠) •

فاذا كان الناس متساوين في القيمة الانسانية فلا يجوز أن يتعرض انسان لخطر أو ضرر بأكثر مما يتعرض له غيره من الناس ، حيث « المسلمون تتكافأ دماءهم » (١١) • ومن ثم فليس هناك مسوغ للتفريق بين الناس على أساس اللون أو الجنس أو العرق أو اللغة أو الدين • وأي تفرقة من هذا النوع تكون منافية وهادامة لمبدأ المساواة في الاسلام •

واذا كان الناس أمام الاسلام متساوين في القيمة الانسانية فلا بد أن يكونوا متساوين في تطبيق شرع الله عليهم ، لا يستثنى من ذلك أحد

(٨) هذه العبارة من خطبة للرسول صلى الله عليه وسلم في

حجة الوداع •

(٩) سورة الأحقاف ١٩ •

(١٠) سورة الحجرات ١٣ •

(١١) رواه أحمد في مسنده •

مهما يكن منصبه أو جاهه أو غناه أو شرفه « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (١٢) فالشريعة تحمي صاحب الجاه والسلطان والمحروم منهما ، وتحمي القوى والضعيف سواء بسواء ، لأنها تحترم الانسان ، مهما يكن هذا الانسان « ألا ان أضعفكم عندى القوى آخذ الحق منه ، وأقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له » (١٣) •

ومادام الناس متساوين فى القيمة الانسانية ، وأمام تطبيق الشريعة عليهم دون استثناء وحمائتها لهم ، فيلزم أن يكونوا متساوين فى حق الانتفاع بالموارد المادية للمجتمع من خلال فرص عمل متكافئة لكل انسان أن يأخذ فرصته فى العمل كما يأخذ غيره فرصته ، ولا سيما أن موارد الرزق قد أتاحها الله للجميع بقوله : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » (١٤) •

وإذا كان الجهد المبذول واحدا ، والعمل المؤدى واحدا من حيث الكم والكيف ، فانه لا يجوز التفرقة فى الأجر بين انسان وآخر « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (١٥) • ومن هنا فلا معنى اطلاقا لأن يأخذ انسان أجرا أكبر من أجر انسان آخر يعمل نفس العمل ، كما يحدث فى بعض الدول الاسلامية •

هذا هو حق المساواة الذى سبق به الاسلام « اعلان حقوق الانسان » والذى جاء فيه : « يحق لكل فرد أن يستمتع بجميع الحقوق والحريات المنصوص عليها فى هذا الاعلان دون تفرقة أو تمييز من أى

(١٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى •

(١٣) من خطبة للخليفة الأول عند تولية الخلافة •

(١٤) سورة الملك ١٥ •

(١٥) سورة الزلزلة ٧ - ٨ •

نوع ، كالتمييز بسبب السلالة أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو غيره من الآراء أو الأصل القومي أو الاجتماعي أو الثروة أو المولد أو غير ذلك من الأوضاع » (١٦) •

٤ — حق الانسان في العدالة :

العدل صفة خلقية تنعكس في كل نواحي حياة المؤمنين المتقين النفسية والاجتماعية والسياسية •

فالمسلم عادل مع نفسه ، فهو لا يظلمها بالانحراف عن شرع الله وتعدى حدوده « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » (١٧) • وقد أمر الله المؤمنين بالالتزام بالعدل في الأقوال والأفعال والأحكام وألا يثنيهم عن ذلك صلات القرابة والمودة ، ولا مشاعر الكراهية والعداوة « ولا يجرمكم شئنا أن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » (١٨) •

فالعدل في الاسلام مبدأ خلقى مطلق ، يطبق على كل الناس ، وفي جميع الظروف والأحوال • وليس العدل في الاسلام — كما هو في المجتمعات العنصرية والطبقية — ميزة يحتكر التمتع بها أفراد الجنس الأبيض أو طبقات الأغنياء (١٩) •

فمن حق كل انسان أن يتحاكم الى الشريعة ، وأن يحاكم اليها

(١٦) المادة ٢ البند « أ » •

(١٧) سورة الطلاق ١ (١٨) سورة المائدة ٨ •

(١٩) د • أحمد عبد الحميد غراب : الشخصية الإنسانية في ضوء

القرآن الكريم ص ٨٩ •

- دون سواها « فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول » (٢٠)
- « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » (٢١)

كما أن من حق كل انسان أن يدفع عن نفسه ما يلحقه من ظلم :
 « لا يجب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم » (٢٢) ومن واجبه
 أن يدفع الظلم عن غيره بما يملك من وسائل : « لينصر الرجل أخاه ظالما
 أو مظلوما : ان كان ظالما فلينهه ، وان كان مظلوما فلينصره » (٢٣) •
 ومن حق الانسان أن يلجأ الى سلطة شرعية تحميه وتصفه ، وتدفع
 عنه ما لحقه من ضرر أو ظلم ، وعلى الحاكم المسلم أن يقيم هذه
 السلطة ويوفر لها الضمانات الكفيلة بحيديتها واستقلالها • فالرسول
 صلى الله عليه وسلم يقول : « انما الامام جنة يقاتل من ورائه ،
 ويحتمى به » (٢٤) •

يضاف الى ذلك أن من حق الانسان ، بل ومن واجبه ، أن يدافع
 عن الآخرين احتسابا لوجه الله ، ومن غير أن يطلب منه ذلك « الا أخبركم
 بخير الشهداء ؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها » (٢٥) •

وحق الانسان في الدفا ع عن نفسه لا تجوز مصادرته تحت أى
 مسوغ كان ولا بأى وجه من الوجوه « ان لصاحب الحق مقالا » (٢٦) ،
 « اذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر ، كما
 سمعت من الأول ، فانه أخرى أن يتبين لك القضاء » (٢٧) •

• (٢٠) سورة النساء ٥٩

• (٢١) سورة المائدة ٤٩

• (٢٢) سورة النساء ١٤٨

• (٢٣) رواه الشيخان والترمذى • (٢٤) متفق عليه

• (٢٥) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى

• (٢٦) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى

• (٢٧) رواه أبو داود والترمذى

وليس لانسان أن يلزم مسلما بأن يطيع أمرا يخالف الشريعة ، لأنه « اذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » (٢٨) ومن حق من يقول. « لا » في وجه من يأمر بمعصية أن يحمي المجتمع رفضه تضامنا مع الحق ، لأن « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » (٢٩) •

هذا هو حق العدالة الذي قرره الاسلام وأكدده وحرص عليه • وقد عبر « الاعلان العالمى لحقوق الانسان » عن هذا الحق في المادة السابعة والمادة الثامنة فقد جاء فيهما : « كل الناس سواء أمام القانون ، ومن حقهم جميعا أن يحميهم القانون دون تمييز بينهم وكل منهم ذو حق متساو في أن يحميه القانون من أى تمييز » ، « لكل انسان الحق في اللجوء الى المحاكم الوطنية المختصة لتدفع عنه أى عدوان على حقوقه الأساسية » •

ويتصل بهذا الحق حق الفرد في أن يحاكم محاكمة عادلة • وفي هذا المجال يعتبر الاسلام أن براءة الانسان هي الأصل ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « كل أمتى معافى الا المجاهرين » (٣٠) •

وهذه البراءة لا تنتفى عن الانسان المتهم حتى تثبت ادانته ادانة نهائية ، أمام محكمة عادلة •

ولا يعد الانسان مجرما الا بنص شرعى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (٣١) • وليس لمسلم أن يعتذر بالجهل لما هو معلوم من الدين بالضرورة ، غير أنه ينظر الى جهله - اذا ثبت - على أنه شبهة تدرك بها الحدود فقط « ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم » (٣٢) • ولا يحكم بتجريم انسان ، ولا يعاقب.

(٢٨) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى •

(٢٩) رواه البخارى (٣٠) متفق عليه •

(٣١) سورة الاسراء ١٥ (٣٢) سورة الأحزاب ٥ •

على جرم الا بعد ثبوت ارتكابه لهذا الجرم بأدلة صحيحة وأمام محكمة لها طبيعة قضائية كاملة « ان جاءزم فاسق بنبا فتبينوا » (٣٣) •
 « وان الظن لا يغنى من الحق شيئا » (٣٤) • وعند تطبيق العقوبة على من أجرم فانه لا يجوز مطلقا تجاوز العقوبة المقررة شرعا « تلك حدود الله فلا تعتدوها » (٣٥) • وقد حرصت الشريعة الاسلامية على مراعاة الظروف والملابسات التي حدثت فيها الجريمة درءا للحدود ، فقد قال عليه السلام : « ادعوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فان كان له مخرج فخلوا سبيله » (٣٦) • كما حرصت على أن لا يؤخذ انسان بجريمة غيره « ولا تزر ورة وزر أخرى » (٣٧) • فكل انسان في الاسلام مسئول عن أفعاله مسئولية كاملة ، ومسئول في هذا استقلالا كاملا « كل امرئ بما كسب رهين » (٣٨) • ومن هنا فلا يجوز مطلقا أن تمتد المساءلة الى أهله وذويه أو غيرهم « معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذا ظالمون » (٣٩) •

وقد عبر « الاعلان العالمي » عن هذا الحق في المادتين : العاشرة والحادية عشرة ، حيث جاء فيهما :

« لجميع الأفراد على السواء الحق في محاكمة عادلة علنية أمام محكمة مستقلة محايدة تقرر حقوق الفرد وواجباته وتفصل في أية تهمة جنائية توجه اليه » •

« كل متهم بجريمة له الحق في أن يعتبر بريئا حتى تثبت ادانته »

- | | |
|----------------------|-----------------------------|
| (٣٣) سورة الحجرات ٦. | (٣٤) سورة النجم ٢٨ • |
| (٣٥) سورة البقرة ٢٢٩ | (٣٦) رواه البيهقي والحاكم • |
| (٣٧) سورة الاسراء ١٥ | (٣٨) سورة الطور ٢١ • |
| (٣٩) سورة يوسف ٧٩ • | |

قانوننا بمحاكمة علنية تتوافر فيها كافة الضمانات التي تكفل له الدفاع

عن نفسه » ♦

لا يجوز اعتبار أى انسان مذنباً بسبب ارتكابه فعلاً أو بسبب اهمال لم يعده قانون العقوبات الأهلى أو الدولى جريمة وقت ارتكابه ♦ . كذلك لا يجوز أن توقع عليه عقوبة أشد من العقوبة التي كانت تطبق وقت ارتكابه هذا الجرم » ♦

كما نصت المادة التاسعة على أنه « لا يجوز القبض على انسان أو حبسه أو ابعاده بغير مسوغ قانونى » ♦

٥ — حق الحماية من التعسف والتعذيب :

لقد كفل الاسلام لكل انسان حقه فى حمايته من تعسف السلطان معه بأى وجه من الوجوه ♦ فلا يجوز أن يطالب انسان بتقديم تفسير لعمل من أعماله ، أو وضع من أوضاعه ، ولا توجيه اتهام له الا بناء على قرائن قوية تدل على تورطه فيما يواجه اليه من تهمة « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهنانا وإثماً مبيناً » (٤٠) ♦

كما كفل الاسلام لكل انسان حقه فى الحماية من التعذيب فلا يجوز تعذيب المجرم فضلاً عن المتهم « ان الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا » (٤١) ♦ ولا يجوز — أيضاً — حمل الانسان على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها ، وكل اعتراف ينتزع بوسائل الاكراه فهو باطل « ان الله وضع عن أمتى الخطأ والنسـيـان وما استكـرهـوا عليه » (٤٢) ♦ ومهما كانت جريمة الانسان ، ومهما تكن عقوبتها التي

(٤٠) سورة الاحزاب ٥٨ ♦

(٤١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ♦

(٤٢) رواه ابن ماجه ♦

قررها المشرع فان انسانية الانسان وكرامته الانسانية تظل مصونة ومحترمة *

وهذا ما عبرت عنه المادة الخامسة من « الاعلان العالمى » حيث تنص على أنه « لا يجوز تعريض أى انسان للتعذيب ولا لضروب من المعاملة أو العقوبة القاسية المهينة المخافية للكرامة الانسانية » *

٦ - حق الانسان فى حماية عرضه وسمعته :

لقد حرم الاسلام أن تنتهك سمعة الانسان وعرضه ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » (٤٣) * كما حرم تتبع عورات الانسان ومحاولة النيل من شخصيته المعنوية « ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » (٤٤) ، « ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب » (٤٥) *

وهذا الحق نصت عليه المادة الثانية عشرة من الاعلان العالمى فقالت انه « لا يجوز تعريض انسان للتدخل فى شئونه الخاصة ولا فى شئون أسرته أو مسكنه ، أو رسائله بغير مسوغ قانونى ، ولا للاعتداء على شرفه وسمعته ، ولكل انسان الحق فى الاحتماء بالقانون من مثل هذا التدخل أو الاعتداء » *

٧ - حق اللجوء :

وهذا الحق كفله الاسلام لكل مظلوم أو مضطهد ، سواء كان مسلما أو غير مسلم ، أو أبيض أو اسود ، شرقيا أو غربيا « وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه

(٤٣) من خطبة النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ١٠

(٤٤) سورة الحجرات ١٢ * (٤٥) سورة الحجرات ١١

«مأمنه» (٤٦) • فللمظلوم أو المضطهد أن يلجأ الى حيث يأمن في نطاق دار الاسلام • وبیت الله الحرام بمكة المكرمة جعله الله مثابة للناس وأمنا فلا يصد عنه مسلم أبداً « ومن دخله كان آمناً » (٤٧) ، « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً » (٤٨) •

وهذا ما عبر عنه « الاعلام العالمى » بقوله : « لكل انسان الحق في أن يلتمس في غير وطنه ملجأ يفيده منه ويلوذ به من الاضطهاد » (٤٩) •

٨ - حقوق الأقلية :

لقد وضع الاسلام مبدأ عاماً يحكم الأوضاع الدينية للأقليات ، هذا المبدأ هو قوله تعالى : « لا اكراه في الدين » (٥٠) • أما الأوضاع المدنية والأحوال الشخصية لهذه الأقليات فالشريعة الاسلامية تحكمها ان هم تحاكموا الى المسلمين « فان جاعوك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط » (٥١) • فان لم يتحاكموا الى المسلمين فان عليهم أن يتحاكموا الى شرائعهم ما دامت تنتمي عندهم لأصل سماوى « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك » (٥٢) • « وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه » (٥٣) •

-
- (٤٦) سورة التوبة ٦ •
 - (٤٧) سورة آل عمران ٩٧ •
 - (٤٨) سورة البقرة ١٢٥ •
 - (٤٩) المادة ١٤ البند « أ » •
 - (٥٠) سورة البقرة ٢٥٦ •
 - (٥١) سورة المائدة ٤٢ •
 - (٥٢) سورة المائدة ٤٣ •
 - (٥٣) سورة المائدة ٤٧ •

٩ — حق الانسان في أن يشارك في الحياة العامة :

لقد قرر الاسلام حقاً لكل انسان في أن يعلم ما يجري في حياة أُمته ، من أمور تتعلق بمصلحة المجتمع ، فلكل انسان أن يشارك في هذه الأمور بحسب مواهبه وقدراته • وذلك اعمال لمبدأ مهم في الاسلام هو مبدأ الشورى ، قال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » (٥٤) • وكل انسان يصلح لأن يتولى المناصب والوظائف العامة في أُمته ، متى تحققت فيه شرائطها الشرعية ، ولا تسقط هذه الصلاحية ، أو ينتقص منها ، لأي سبب من الأسباب الطبقية أو العنصرية ، إذ « المسلمون متكافأ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم » (٥٥) •

ومبدأ الشورى هو أساس العلاقة بين الراعى والمرعية • فمن حق المرعية أن تختار راعيها ، بارادتها الحرة بناء على هذا المبدأ المهم ، كما أن من حقها محاسبته وعزله إذا حاد عن الشريعة وتنفيذها ، فقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه عندما تولى الخلافة : « انى وليت عليكم ولست بخيركم فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فقومونى • أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فان عصيت فلا طاعة لى عليكم » •

لقد عبر « الاعلان العالمى » عن هذا الحق بقوله : « لكل انسان الحق فى الاشتراك فى حكومة بلاده سواء أكان ذلك مباشرة أم بواسطة ممثلين منتخبين انتخاباً حراً » • « لجميع الأفراد على السواء الحق فى الالتحاق بالوظائف العامة فى بلادهم ••• » (٥٦) •

• (٥٤) سورة الشورى ٣٨

• (٥٥) رواه الامام أحمد

• (٥٦) البندان «أ» ، «ب» من المادة الحادية والعشرين

١٠ — حق الاعتقاد والتفكير والتعبير •

من حق كل انسان — فى الاسلام — أن يعتقد ، وأن يفكر ، وأن يعبر عن اعتقاده وفكره ، دون تدخل أو مصادرة من أى جهة طالما كان هذا الاعتقاد والتفكير والتعبير يلتزم الحدود والمبادئ العامة التى يقرها الشرع • فلا يجوز — بحال — نشر الباطل ، ولا اذاعة ما فيه ترويج للفحش أو تثبيط للدولة الاسلامية « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لخنرك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا • ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا » (٥٧) •

ان الاسلام يجعل التفكير الحر النزيه الباحث عن الحق واجبا على المسلم لا يجوز له أن يتخلى عنه : « قل انما أعظمكم بواحداً أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » (٥٨) •

كما أن من حق كل انسان ، بل ومن واجبه ، أن يعبر عن رفضه للظلم ، وأن ينكره ، وأن يقاومه ، دون خوف من أحد ، لأن هذا من أفضل الجهاد الذى أمرنا الله ورسوله به • فقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم : « أى الجهاد أفضل ؟ قال : كلمة حق تقال عند سلطان جائر » (٥٩) •

واذاعة المعلومات الصحيحة والحقائق أمر لا يحظره الاسلام الا اذا كان ذلك يحتوى على خطر يهدد أمن الدولة وسلامتها • يقول سبحانه : « واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه الى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » (٦٠) •

(٥٧) سورة الأحزاب ٦٠ - ٦١ • (٥٨) سورة سبأ ٤٦

(٥٩) رواه الترمذى والنسائى •

(٦٠) سورة النساء ٨٣.

واذا كان الاسلام يقر حق التفكير والاعتقاد والتعبير فانه بناء على هذا لا يجوز لانسـان أن يسخر من معتقدات انسان آخر ، ولا أن يثير المجتمع ضده ، لأن احترام مشاعر المخالفين في الدين من خلق المسلم الحقيقي « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم » (٦١) • بل ان الاسلام قد كفل الحرية الدينية لكل انسان ، فله أن يعتقد ما يشاء وأن يقيم عبادته بحسب معتقده : « لكم دينكم ولي دين » (٦٢) •

وحق الانسان في أن يكون حرا في تفكيره واعتقاده وتعبيره عبر عنه « الاعلان العالمي » بقوله : « لكل انسان الحق في حرية الفكر والضمير والدين » • و « لكل انسان الحق في حرية الرأي والتعبير عنه ، ويتضمن هذا الحق حرية اعتناق الآراء بمأمن من التدخل ، وحرية التماس المعلومات والأفكار وتلقيها وإذاعتها بمختلف الوسائل دون تقييد بحدود الدولة » (٦٣) •

١١ — حق الدعوة والتبليغ :

من حق كل انسان أن يشارك في حياة المجتمع الذي يعيش فيه سواء كان ذلك دينيا ، أو اجتماعيا ، أو ثقافيا ، أو سياسيا أو غير ذلك ، وأن ينشئ من الوسائل ما يكفل له هذا الحق وممارسته « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » (٦٤) • كما أن من واجب كل انسان مسلم أن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر ، وأن يطلب من مجتمعه أن يقيم مؤسسات تمكن للأشخاص أن يقوموا بهذا الواجب ، وذلك من باب التعاون على البر والتقوى ،

• (٦١) سورة الأنعام ١٠٨ •

• (٦٢) سورة الكافرون ٦ • (٦٣) المادتان ١٨ ، ١٩ •

• (٦٤) سورة يوسف ١٠٨ •

والتناهى عن الاثم والعدوان * « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون المعروف وينهون عن المنكر » (٦٥) * « وتعاونوا على البر والتقوى » (٦٦) ، « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » (٦٧) *

وهذا الحق عبر عنه « الاعلان العالمى » بقوله : « لكل انسان الحق فى حرية حضور الاجتماعات السلمية والانضمام الى الجمعيات ذات الأغراض السلمية » * « لا يجوز اكراه انسان على الانضمام الى جمعية من الجمعيات » (٦٨) * « لكل انسان الحق فى الاشتراك بمحض ارادته فى حياة المجتمع الثقافية » (٦٩) *

١٢ - الحقوق الاقتصادية والعمالية :

ان الثروات الطبيعية بجميع أنواعها ، بل الطبيعة كلها ، والكون كله ملك لله سبحانه « لله ملك السموات والأرض وما فيهن » (٧٠) * وقد منح الله الانسان حق الانتفاع بهذه الثروات فسخر الطبيعة له « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه » (٧١) * وقد حرم الله على الانسان أن يفسد ما سخر له أو يخربه « ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » (٧٢) * وليس لانسان أن يحرم انسانا آخر من الانتفاع بما فى الطبيعة من مصادر رزق أو يعتدى على حقه فى هذا بأى حال « وما كان عطاء ربك محظورا » (٧٣) *

ومن هنا فلكل انسان أن يحصل رزقه من وجوهه المشروعة ، أى أن يعمل وينتج فى مجال مباح « فامشوا فى مناكبها وكلوا من

(٦٥) سورة آل عمران ١٠٤ *

(٦٦) سورة المائدة ٢ (٦٧) رواه أصحاب السنن

(٦٨) المادة ٢٠ (٦٩) المادة ٢٧ المبدأ « أ » ١٠

(٧٠) سورة المائدة ١٢٠ * (٧١) سورة البقرة ١٣

(٧٢) سورة الشعراء ١٨٣ (٧٣) سورة الاسراء ٢٠

• رزقه « (٧٤) • وله أن يملك ما اكتسبه بجهده وعمله اذ الملكية الخاصة أمر مشروع سواء كانت على انفراد أو مشاركة » وأنه هو أغنى وأقنى « (٧٥) • واذا كان الاسلام يقر الملكية الخاصة فانه في الوقت نفسه يقر الملكية العامة ، ويوظفها لصالح المجتمع ككل « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذی القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل کی لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (٧٦) •

وقد عبر « الاعلان العالمی » عن هذا بقوله : « لكل انسان الحق في التملك ، سواء وحده أو بالاشتراك مع غيره » • « لا يجوز حرمان انسان من أملاكه بغير مسوغ قانونی » (٧٧) •

غير أن الاسلام يزيّد على هذا حيث جعل لفقراء الأمة حقاً مقرواً في مال أغنيائها ، هذا الحق لا يجوز تعطيله أو منعه أو الترخّص فيه من جانب أى انسان • هذا الحق نظمته الزكاة التى هى أحد الأركان الأساسية في الاسلام • ولهذا قاتل أبو بكر الذين امتنعوا عن أداء الزكاة •

كما أن الاسلام ينهى المسلمين عن اهمال مصادر الثروة ووسائل الانتاج أو تعطيلها ، ويأمرهم بتوظيفها لصالح المجتمع كله ، لأنه « ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بالنصيحة الا لم يجد رائحة الجنة » (٧٨) • وقد نهى الاسلام أيضاً عن استثمار الثروة ووسائل الانتاج فيما حرّمته الشريعة ، حيث المبدأ العام في الاسلام أنه « لا ضرر ولا ضرار » •

• (٧٥) سورة النجم ٤٨ •

• (٧٧) المادة ١٧ •

• (٧٤) سورة الملك ١٥

• (٧٦) سورة النحر ٩

• (٧٨) متفق عليه

ان الاسلام قد وضع الضوابط التى ترشد النشاط الاقتصادى .
وتضمن سلامته • من هذه الضوابط :

(أ) أن الاسلام حرم الغش بكل أشكاله « ليس منا من .
غش » (٧٩) •

٢٠٤

(ب) أنه حرم الغرر والجهالة ، وكل ما يؤدي الى منازعات .
لا تخضع لمقاييس موضوعية ، فقد « نهى النبى صلى الله عليه وسلم
عن بيع العنب حتى يسود وعن بيع الجب حتى يشتد » (٨٠) • فالاسلام
يحرم بيع الأشياء المحبولة وغير المحددة كما فى هذا الحديث وكبيع
الطير فى الهواء والسّمك فى الماء وغير ذلك مما يؤدي الى التنازع
بين الناس بسبب الجهالة وعدم التحديد للمعاقد عليه •

(ج) أنه حرم الاستغلال والتظالم فى عمليات التبادل « ويل
للمطففين • الذين اذا اكلوا على الناس يستوفون • واذا كالوهم أو
وزنوهم يخسرون » (٨١) •

(د) أنه حرم الاحتكار لضروريات الناس ، وكل ما يؤدي الى
منافسة غير متكافئة ، فالمحتكر يستغل حاجات الناس ويربح ربحا
فاحشا على حسابهم ، و « لا يحتكر الا خاطيء » (٨٢) و « من احتكر
طعاما أربعين يوما فقد برىء من الله وبرىء الله منه » (٨٣) •

(هـ) أنه حرم الربا وكل كسب طفيلى يستغل ضوابط الناس ،
لأنه ربح بلا جهد ، ولأنه يقضى على روح التعاون ، ويؤدي الى

(٧٩) رواه مسلم •

(٨٠) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى •

(٨١) سورة الطغفين ١ - ٣ ، (٨٢) رواه مسلم •

(٨٣) رواه أحمد •

تضخم الثروات وزيادة الفروق بين الطبقات ، وكثيرا ما كان اقتراض الدول وسيلة للاستعمار وفقدان الاستقلال الوطنى (٨٤) •

(و) أنه حرم كثر الأموال وتكديسها فى أيدي فئة قليلة من الناس ، لأن فى ذلك منعا لها من التبادل الاقتصادى الذى لا بد منه لحاجة المجتمع الاسلامى لاستخدامها والانتاج وزيادة الموارد الاقتصادية والدخل القومى •

(ز) أنه حرم بيع الأشياء المحرمة ، كالخنزير والخمر والأصنام والصلبان وغيرها ، لما فى ذلك من المعصية •

(ح) أنه حرم الاسراف فى استعمال المال ، لما فى ذلك من تبديد لأموال يحتاجها المجتمع الاسلامى • كما حرم أن يكون التملك بوسائل غير مشروعة كالسرقة أو النهب أو الغصب (٨٥) •

(ط) أنه حرم الدعايات الكاذبة والخادعة فى البيع والشراء ، اذ « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فان صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وان غشا وكذبا محقت بركة بيعهما » (٨٦) •

هذا ، والقيد الوحيد على النشاط الاقتصادى فى المجتمع الاسلامى هو رعاية مصالح الناس والتزام القيم العامة للإسلام •

ويتصل بالحقوق الاقتصادية أنه لا يجوز انتزاع ملكية نتجت عن كسب حلال الا لمصلحة عامة « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » (٨٧) على أن يعطى لصاحبها تعويضا عادلا ، لأنه « من أخذ من الأرض

(٨٤) د. محفوظ عزام : نظرات فى الثقافة الاسلامية ص ٢٥٨ •

(٨٥) المرجع السابق ص ٢٥٩ •

(٨٦) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى •

(٨٧) سورة البقرة ١٨٨ •

شيئاً بغير حقه خسف به يوم القيامة الى سبع أرضين» (٨٨) • وهذه الملكية العامة لها حرمة أعظم ، وعقوبة الاعتداء عليها أشد ، لأنه عدوان على المجتمع بأسره ، وخيانة للأمة كلها « من استعملناه منكم على عمل فكتمنا فيه مخيطة فما فوقه كان غلولا يأتى به يوم القيامة » (٨٩) • وقد « قيل يا رسول الله : ان فلانا قد استشهد ! قال : كلا ! لقد رأيته في النار بعبادة قد غلها • ثم قال : يا عمر : قم ، فناد : انه لا يدخل الجنة الا المؤمنون (ثلاثا) » (٩٠) •

هذه هي الحقوق الاقتصادية أما فيما يتعلق بالحقوق العمالية فاننا نستطيع القول بأن « العمل » شعار رفعة الاسلام لمجتمعه « وقل اعملوا » (٩١) • وحق العمل في الاسلام هو الاتقان لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » (٩٢) •

أما حق العامل فيتلخص فيما يلي :

(أ) أن يأخذ أجراً يتناسب مع ما يبذله من جهد من غير أن يظلم أو يماطل في اعطائه حقه « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه » (٩٣) •

(ب) أن يحيا حياة كريمة تتكافأ مع ما يبذله من جهد وعرق « ولكل درجات مما عملوا » (٩٤) •

(ج) أن يحظى بما هو جدير به من تكريم المجتمع بأسره له

(٨٨) رواه البخارى (٨٩) رواه مسلم •

(٩٠) رواه مسلم والترمذى • (٩١) سورة التوبة ١٠٥ •

(٩٢) رواه أبو يعلى • (٩٣) رواه ابن ماجه •

(٩٤) سورة الأحقاف ١٩

« قسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (٩٥) • و « ان الله يحب المؤمن المحترف » (٩٦) •

(د) أن يحظى بالرعاية والحماية ، فلا تستغل ظروفه ولا يظلم، لقول الله تعالى : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره » (٩٧) •

وقد عبر « الاعلان العالمى » عن الحقوق العمالية بقوله : « لكل انسان حق العمل وحرية اختياره وله حق العمل في ظروف عادلة ملائمة وحق الحماية من التعتل » • « لجميع الأفراد الحق في أن يتقاضوا أجورا متكافئة عن الأعمال المتكافئة دون أى تمييز بينهم » • « لكل ولأسرته حياة كريمة ويضاف الى هذا الأجر غيره من وسائل الحماية من يعمل الحق في أن يتقاضى عن عمله أجرا عادلا مناسبا يكفل له الاجتماعية اذا اقتضى الأمر » (٩٨) •

١٣ — حق الانسان في أن ينال ما يكتفيه :

من حق كل انسان أن يحصل على كفايته من مقومات الحياة: وضرورياتها ، من مطعم ومشرب وملبس ومسكن ، وما يلزم لصحة جسمه من رعاية ، وما يلزم لصحة روحه وعقله من علم ومعرفة وثقافة: في نطاق ما تسمح به موارد الدولة • يضاف الى ذلك كل ما لا يستطيع الفرد أن يستقل بتوفيره لنفسه فعلى الأمة توفيره •

(٩٥) سورة التوبة ١٠٥ •

(٩٦) رواه الطبراني (٩٧) حديث قلبي • رواه البخاري •

(٩٨) المادة ٢٣ ، البنود أ ، ب ، ج •

١٤ - حق بناء الأسرة :

من حق كل انسان أن يتزوج • فالزواج هو الطريق الشرعى لبناء الأسرة وانجاب الذرية واعفاف النفس •

ولكل من الزوجين حق قبل الآخر وعليه واجب « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » (٩٩) • وللاب أن يربى أولاده وفقا لعقيدته وشريعته من الناحية البدنية والخلقية والدينية ، وهو مسئول عن اختياره فى توجيههم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (١٠٠) •

كما أن لكل من الزوجين قبل الآخر حق احترامه ، وتقدير مشاعره وظروفه فى اطار من المودة والرحمة ، لقوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (١٠١) ، وعلى الزوج أن ينفق على زوجته وأولاده من غير تقتير « لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » (١٠٢) •

وعلى الأبوين أن يحسنا تربية طفلهما وتعليمه وتأديبه ، لأن هذا حق له عليهما « وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » (١٠٣) •

ولا يجوز تشغيل الطفل فى سن مبكرة ، ولا تحميله من الأعمال بما يرهقه أو يعوق نموه ، أو يحول بينه وبين حقه فى التعلم واللعب • وإذا عجز الأبوان عن القيام بمسئوليتهما نحو طفلهما ، فإن هذه المسئولية تنتقل الى الدولة ، بحيث ينفق على الطفل من بيت مال

١ (٩٩) سورة البقرة ٢٢٨ •

٢ (١٠٠) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى •

٣ (١٠١) سورة الروم ٤١ (١٠٢) سورة الطلاق ٧ •

٤ (١٠٣) سور الاسراء ٢٤ •

المسلمين أو الخزانة العامة للدولة بالتعبير الحديث • يقول عليه الصلاة والسلام : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، فمن ترك ديننا ، أو ضيعة (١٠٤) فعلى ، ومن ترك مالا فلو رثته » (١٠٥) •

لقد كفل الاسلام لكل انسان في الأسرة أن ينال منها ما هو في حاجة اليه ، سواء كان رعاية وحنانا أو كفاية مادية ، وذلك في كل مراحل العمر وفي جميع الحالات ، وللوالدين على أولادهما حق كفالتهما ورعايتهما ، وللأمومة حق في رعاية خاصة من الأسرة •

ان مسئولية الأسرة شركة بين أفرادها ، كل بقدر ما يستطيع وهي مسئولية تتسع دائرتها لتشمل الأقارب وذوى الأرحام •

« يارسول الله : من أبر ؟ قال : أمك • ثم أمك • ثم أمك • ثم أباك • ثم الأقرب فالأقرب » (١٠٦) •

وفي الاسلام لا يجبر الفتى أو الفتاة على الزواج ممن لا يرغب فيه ، فقد « جاءت جارية بكر الى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت أن أباه زوجها وهي كارهة فخيرها النبي صلى الله عليه وسلم » (١٠٧) •

أما حقوق الزوجة فهي :

(أ) أن يعطيها زوجها مهرا « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » (١٠٨) •

(ب) أن تعيش مع زوجها حيث يعيش « أسكنوهن من حيث سكنتم » (١٠٩) •

(١٠٤) أى ذرية ضعفا يخشى عليهم الضياع •

(١٠٥) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى •

(١٠٦) رواه أبو داود والترمذى •

(١٠٧) رواه أحمد وأبو داود (١٠٨) سورة النساء ٤

(١٠٩) سورة الطلاق ٦

(ج) أن ينفق عليها طوال زواجهما ، وخلال فترة عدتها ان هو طلقها : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » (١١٠) • « وان كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يوضعن حملهن » (١١١) • وأن تأخذ من مطلقها نفقة من تحضنهم من أولاده منها ، بما يتناسب مع كسب أبيهم « فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن » (١١٢) •

(د) أن تطلب من زوجها انهاء العقد وديا عن طريق الخلع « فان خفتم ألا يقيما » أى الزوجان « حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به » (١١٣) • كما أن لها أن تطلب التطلاق قضائيا في حدود الأحكام الشرعية الخاصة بذلك •

(هـ) أن ترث زوجها « ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم » (١١٤) •

(و) ألا يظلمها زوجها ، بأن يهجرها لغير عذر شرعى ، أو يمسكها في بيته وهو غير راغب فيها ، لمجرد الضرر والاعتداء ، أو يكون متزوجا بأكثر من واحدة فلا يعدل في ميله لهن • « ولا تمسكوهن ضاررا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه » (١١٥) « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » (١١٦) •

(ز) على كلا الزوجين أن يحفظ غيب صاحبه ، وألا يفشى شيئا من أسرارها ، وألا يكشف عما قد يكون به من نقص خلقى و خلقى •

-
- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| • (١١٠) سورة النساء ٣٤ | • (١١١) سورة الطلاق ٦ |
| • (١١٢) سورة الطلاق ٦ | • (١١٣) سورة البقرة ٢٢٩ |
| • (١١٤) سورة النساء ١٢ | • (١١٥) سورة البقرة ٢٣١ |
| • (١١٦) سورة النساء ١٢٩ | |

ويؤكد هذا الحق عند الطلاق وبعده « ولا تنسوا الفضل بينكم » (١١٧) •

١٥ - حق التربية والتعليم :

إذا كان المبر والاحسان في المعاملة حق الآباء على الأولاد فإن التربية الصالحة حق الأولاد على الآباء •

ولكل انسان - ذكرا كان أو أنثى - الحق في أن يتعلم • وطلب العلم واجب على الجميع ، بل ان « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » (١١٨) •

كما أن التعليم حق لغير المتعلم على المتعلم « ليلغ الشاهد الغائب » (١١٩) •

وعلى المجتمع أن يتيح فرصة التعلم والاستئارة لكل انسان • ولكل انسان أن يختار ما يتوافق مع مواهبه وقدراته الذاتية « كل ميسر لما خلق له » (١٢٠) •

١٦ - حق الانسان في حماية خصوصياته :

ان سرائر البشر لا يطلع عليها الا الله وحده « أفلا شققت عن عن قلبه » (١٢١) • وخصوصيات الناس حمى لا يحل المتسور عليه « ولا تجسسوا » (١٢٢) • « يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض،

(١١٧) سورة البقرة ٢٣٧ • (١١٨) رواه ابن ماجه •

(١١٩) من خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع •

(١٢٠) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى •

(١٢١) رواه مسلم • (١٢٢) سورة الحجرات ١٢ •

الايمان الى قلبه : لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله » (١٢٣) •

١٧ — حق حرية الارتحال والاقامة :

من حق كل انسان أن يتنقل من مكان اقامته ويرجع اليه ، كما أن له أن يرحل ويهاجر من موطنه ثم يعود اليه ، من غير تضيق عليه أو تعويق له « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » (١٢٤) • « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » (١٢٥) •

وفى الوقت نفسه لا يجوز اجبار شخص على ترك موطنه ، ولا ابعاده عنه من غير سبب شرعى « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله » (١٢٦) •

كما أن دار الاسلام واحدة ، فهى وطن لكل مسلم ، ولا يجوز أن تقتيد حركته فيها بحواجز جغرافية أو سياسية وعلى كل بلد اسلامى أن يستقبل من يهاجر اليه أو يدخله من المسلمين ، لأن المؤمنين اخوة ، « والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (١٢٧) •

تلك هى أهم الحقوق التى كفلها الاسلام للانسان أيا كان

(١٢٣) رواه أبو داود والترمذى •

(١٢٥) سورة النساء ٩٧ •

(١٢٤) سورة الملك ١٥

(١٢٧) سورة البقرة ١٧٧ •

(١٢٦) سورة البقرة ٢١٧

ذكرناها في ايجاز شديد • ويبقى بعد ذلك أن نتحدث عن حقوق البيئة الطبيعية •

(ب) حقوق البيئة الطبيعية :

من حق البيئة الطبيعية بما فيها من أنهار وبحار وأودية وجبال وزروع ناضرة وحدائق ذات بهجة ، وحيوانات تجمع بين النفع والجمال أن نحافظ عليها وألا نعرضها للتخريب والفساد فاهلاك الحرث والنسل من أقبح صور الفساد التي يبغضها الله ، والرسول صلى الله عليه وسلم يدعو كل مسلم لأن يبذل ما يستطيع من جهد لكي يجعل الأرض خضراء جميلة حتى في أشد الأوقات حرجا • « ان قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فان استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها » (١٢٨) • بل ان اتاحة الزروع والثمار للناس والحيوان والطير أمر يثاب عليه الانسان « لا يغرس مسلم غرسا فيأكل منه انسان ولا دابة ولا طير الا كان له صدقة الى يوم القيامة » (١٢٩) •

والقرآن الكريم ملئ بالآيات التي توقظ في وجدان المسلم الاحساس بالجمال الموجود في الطبيعة ، والتي تدعوه الى اعتبار هذا الجمال من أعظم نعم الله على الانسان • ومن هنا فان علينا أن نحافظ على البيئة الطبيعية بما فيها من زروع وأشجار وثمار جميلة وألا نخربها أو نفسدها ، وألا نترك الأرض دون زرع •

أما حقوق الحيوان في الاسلام فهي :

١ — أن نطعمه ونسقيه • فقد « دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت ، فلا هي أطعمتها وسقتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » (١٣٠) • و « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه

(١٢٩) متفق عليه •

(١٢٨) رواه البخارى

(١٣٠) رواه البخارى

العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فاذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش • فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان قد بلغ منى • فنزل البئر فملا خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له • قالوا : « وان لنا فى البهائم أجرا يا رسول الله ؟ » فقال : « فى كل كبد رطبة أجر » (١٣١) •

٢ — ألا نؤذيه أو نعذبه ، فقد روى عبد الله بن مسعود : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فرأينا حمرة » طائر مثل العصفور « معها فرخان فأخذناهما ، فجاءت الحمرة تعرش « ترفرف » فلما جاء صلى الله عليه وسلم قال من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها اليها » (١٣٢) • وقد « مر عبد الله بن عمر بفتيان من قريش وقد نصبوا طيرا واتخذوه غرضا » أى هدفا يتعلمون عليه الرمي بالسهام « فقال : ان النبى صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا » (١٣٣) •

٣ — ألا نتخذ من تعذيبه ملهة نلهو بها ، فقد « نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن التحريش بين البهائم » (١٣٤) والتحريش بينها هو اغراء بعضها ببعض لتتقاتل •

٤ — أن نعتنى به ، فنعالجه اذا مرض ، ولا نحمله ما لا يطيق ، ولا نعذب الذبيحة ، ولا أن نذبح حيوانا أمام حيوان آخر ، فلنا : « فى كل كبد رطبة أجر » ، كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم :

هذه هى أهم حقوق الحيوان فى الاسلام وكلها تنطوى على خلق الرحمة ، وهى لا تنتزع الا من شقى •

• (١٣١) متفق عليه

• (١٣٢) رواه أبو داود

• (١٣٣) رواه الشيخان وأبو داود

• (١٣٤) رواه أبو داود والترمذى

وهكذا ننتهي من خلق أداء الأمانات الى أهلها الذي أمرنا الله
— سبحانه — به ، وأمرنا رسوله بالوفاء به ذكرناه في إيجاز تاركين
التفصيل لدراسة مستقلة ان شاء الله تعالى •

٢ — الشجاعة

الشجاعة هي فضيلة القوة الغضبية عندما تضبط في عملها
بالعقل (١٣٥) وهي احدى أمهات الفضائل التي ينبغي أن يتحلى بها
الانسان دائماً •

ومن الشجاعة ما هو مذموم كشجاعة من يحارب كي يصل الى
مأكل أو منكح ، وكشجاعة من يقدم لثوران غضب وتطلب غلبة • ومنها
ما هو محمود كمن يحارب ليدافع عن الدين • ومن الشجاعة المحمودة
مجاهدة الانسان نفسه أو غيره « وكك واحد منهما ضربان : مجاهدة
النفس بالقول : وذلك بالتعلم ، وبالفعل : وذلك بقمع الشهوة وتهذيب
الحمية • ومجاهدة الغير بالقول وذلك تزيين الحق وتعليمه ، وبالفعل
وذلك مدافعة الباطل ومتعاطيه بالحرب » (١٣٦) •

فالشجاعة — اذن — نوعان :

(أ) شجاعة في القول أو الرأي •

(ب) شجاعة في الفعل أو الحرب •

ولما كان رسولنا صلى الله عليه وسلم « القدوة الحسنة »
و « بطل الأبطال » فسكتفى ببيان خلق الشجاعة بنوعية عنده لأنه ضرب
أروع الأمثلة في هذا الخلق وبشكل لا نجد له شبيهاً على الإطلاق •

(١٣٥) المعجم الفلسفي ص ١٠١ •

(١٣٦) الراغب الأصفهاني : كتاب الذريعة الى مكالم الشريعة

تحقيق د • أبو اليزيد العجمي ص ٣٢٩ •

وتتجلى شجاعته صلى الله عليه وسلم في الرأي حين خرج على قومه مفاجئاً بالدعوة التي كرهوها ، وحين صبر على الأذى والسخرية ، وحين المقاطعة ، وحين بعث أنصاره الى الحبشة فرارا من الأذى والموت ، وبقي هو يتعرض للأذى ، وحين مات عمه أبو طالب وزوجه خديجة في أيام متتابعات ، وكان في عمه وزوجه الوزير والنصير ، وحين فرض نفسه على القبائل ، وحين هاجر أنصاره الى يثرب ، وبقي هو يقيم صلاته ويجهر بالقرآن قبل أن يهاجر (١٣٧) *

وسنضرب بعض الأمثلة لشجاعته في الرأي لا نجد لها نظيرا في التاريخ القديم أو الحديث ، فمن ذلك ما حدث بينه وبين عمه أبي طالب *

والذي حدث أن وفدا من زعماء قريش قد جاء الى أبي طالب ينذره ، ويطلب اليه أن يكف ابن أخيه عن قريش ، أو تنازله حتى يهلك أحد الفريقين ، فعظم الأمر على أبي طالب ، وخشى عواقب ذلك ، فبعث الى محمد قائلا له : ان قومك قد أنذروني ، فأبق علىّ وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق *

فأجاب محمد : يا عمي ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته * وبكى وقام ، فلما ولى ناداه أبو طالب : أقبل يا ابن أخي ، فأقبل ، فقال : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا « (١٣٨) *

(١٣٧) عبد الرحمن عزالم : بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي

محمد ص ٢٤ *

(١٣٨) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٢٨٤ ن

فهذا مثال عظيم للشجاعة في الرأي وللثبات على الحق والبدء
ضربه الرسول صلى الله عليه وسلم ليكون قدوة لنا •

أما شجاعته في الحرب فلا تقل عن شجاعته في الرأي ، وأكتفى
هنا بمثالين فقط لهما أهميتهما الكبرى •

(أ) فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق ناس قبل صوت ، فنلقاهم
رسول الله راجعا ، وقد سبقهم الى ذلك الصوت ، وعرف الخبر وكان
راكبا فرسا وسيفه في عنقه ، وهو يقول لأهل المدينة : لن تراعوا •

(ب) ويوم حنين وقف على بغلته ، والناس يفرون عنه، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فما رئي أحد يومئذ كان أثبت منه ، ولا أقرب للعدو • وهاتان
الحادثتان مهمتان جدا ، لأن الأولى منهما هب فيها رسول الله الى مكان
الخطر ، قبل أن يتحرك الناس ، وفي الثانية ثبت في مكان الخطر وقد فر
الناس • والذين لهم علم بالحرب يعرفون أنه بهذين الموقفين تمتحن
الشجاعة ، فليس أصعب على النفس من السابق الى الخطر ، ولا من
الصبر عليه وقد استولى الخوف ، وغلب الرعب •

٣ - الجهاد

الجهاد خلق اسلامي أصيل ، ومن هنا فالذي يتمتع بروح الجهاد يكون مسلما حقا ، والاسلام في أمس الحاجة الى مسلمين أقوياء ذوى أخلاق يرفعون من شأنه ويحملون رايته .

(أ) الجهاد مصطلح اسلامي

لقد شرف الله — سبحانه هذه الأمة الاسلامية بفريضة الجهاد ، تكريما لها ، واعزازا لشأنها بين الأمم في كل زمان ومكان ، بل انه سبحانه قد اختار هذه الأمة لتلك الغاية « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم » (١٣٩) « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١٤٠) « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (١٤١) .

فالأمة الاسلامية — لحكمة سبقت من الله عز وجل — أمة مجاهدة عزيزة الجانب ، لا تخضع لغير الله ولا ترضى بذل ، ولا تستكين الى هوان ولا تترك الى دعة ولا الى ترف ، بل تسعى — دائما — لاعلاء كلمة الله ونصرة الحق ، والدفاع عن العقيدة والوطن والأمة وكل مظلوم على هذه الأرض .

ولأهمية مبدأ الجهاد في الاسلام فقد جعله الله — جل شأنه — قرين الايمان بالله ودليلا عليه أو ثمرة طبيعية له « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » (١٤٢) .

• (١٣٩) سورة الحج آية ٧٨

• (١٤٠) سورة آل عمران آية ١١٠

• (١٤١) سورة البقرة آية ١٤٣

• (١٤٢) سورة الحجرات آية ١٥

مفهوم الجهاد :

الجهاد لغة : مأخوذ من (الجهد) - بفتح الجيم - وهو المشقة ،
لما فيه من ارتكابها ، أو (الجهد) بضم الجيم - بمعنى الطاقة ، لأن
المجاهد يبذل طاقته في دفع ومقاتلة الأعداء من النفس والشيطان
والكافرين وغيرهم *

والجهاد شرعا : استفراغ الطاقة في مدافعة الأعداء وقتالهم ويطلق
على جهاد النفس والشيطان والفاسقين (١٤٣) أ وهو بذل كل طاقاتنا
ومواردنا لكي نقيم حياتنا على هذه الأرض على النظام الاسلامي
تنفيذا لأمر الله وتطبيقا لشريعته واعلاء كلمته (١٤٤) *

ان الجهاد كلمة عربية أصيلة ومصطلح اسلامي فريد لا نجد له
نظيرا في غير اللغة العربية ولا في غير الاسلام ، ولهذا فان ترجمة هذا
المصطلح الى أى لغة أخرى تكون غير دقيقة وغير مستوعبة لمعناه ، فعلى
سبيل المثال بعض الناس يترجم هذا المصطلح الى اللغة الانجليزية بمعنى
Holy War أى (الحرب المقدسة) فهذه الترجمة في الواقع لا تعبر
عن معنى (الجهاد) الاسلامي ولا تستوعبه ، لأن الجهاد في الاسلام
مصطلح عام وشامل ، والحرب جزء من الجهاد ، وليس كل الجهاد ، اذن
فهذه الترجمة لا تصلح على الاطلاق للتعبير عن معنى الجهاد كما جاء به
الاسلام كمصطلح خاص به * والفاهمون لهذا المعنى لا يترجمون هذا
المصطلح أبدا الى اللغات الأخرى بل يبقون عليه كما هو ، فقط يستبدلون
بالحروف العربية حروفا لاتينية ويبقى اللفظ كما هو (١٤٥)

(١٤٣) السيد سابق : فقه السنة ج ٣ ص ٢٧ ، أحمد عيسى
عاشور : الفقه الميسر ص ٣٦٨ *

Ghulam Sarwar : Islam, Beliefs and Teachings (١٤٤)
London, 1982 p.81

(١٤٥) من الأمثلة على ذلك الترجمة الرائعة لمعاني القرآن الكريم

واذا كان القتال مشروعاً في الاسلام تجزء من الجهات فانما هو متبع في ذلك لشرع من قبلنا . اذ القتال مشروع في الديانات السابقة على الاسلام . فالجرب أو القتال معروف في ليهودية ذما هو معروف في المسيحية الا أن الاسلام يبقى متفرداً في مصطلحه الاسليم (الجرات) حيث لا نعرف التوراة ولا الانجيل المتداولان بين اليهود والمسيحيين هذا المصطلح ، وانما يعرفان الحرب أو القتال ، وبمعنى مختلف — تماماً — عن معناهما في الاسلام فقد جاء في التوراة :

(حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها الى الصلح ، فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير ، ويستعبد لك ، وان لم تسالمك ، بل عملت معك حرباً ، فحاصرها ، واذا دفعها الرب الهك الى يدك ، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال ، والبهايم ، وكل ما في المدينة ، كل غنيمتها فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب الهك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً ، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب الهك نصيباً فلا تبقى منها نسمة ما) (١٤٦) .

وجاء في الانجيل :

(لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض ، ما جئت لألقى

التي قام بها الانجليزى المسلم Muhammad warmaduke Pichthal
محمد مازمادوك بكنول تحت عنوان

The Meaning of The Glorious Qur, an

وكذلك تلك الترجمة الدقيقة للاربعة النصوص التي قام بترجمتها للانجليزية الدكتور عز الدين ابراهيم والأستاذ دينيس جونسون ديفيزا ، تحت عنوان Fort Hadith فقد ترك هؤلاء جميعاً مصطلح الجهاد كما هودون ترجمة .

(١٤٦) سفر التثنية ، الاصحاح العشرين ، عدد ١٠ وما بعده .

سلاما ، بل سيفاً فاننى جئت لأفرك الانسان ضد أبيه ، والابنة ضد أمها ، والكنة ضد حمايتها ، وأعداء الانسان أهل بيته ، من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن وجد حياته يضيعها ، ومن أضاع حياته من أجلى يجدها (١٤٧) •

الجهاد أعم وأشمل من الحرب :

ان سر تميز مصطلح الجهاد أنه جاء عاماً وشاملاً ، فكل ما فيه اعلاء لكلمة الله فهو من الجهاد ، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو خلاصة الدعوة الاسلامية جهاد ، ورعاية الأيوين جهاد حيث قال النبى صلى الله عليه وسلم لمن أراد أن يستأذنه فى الجهاد (الحرب) : (أحيى والداك ؟ قال نعم • قال : ففيهما جاهد) (١٤٨) ورعاية الأهل والأطفال جهاد وكل ما يبذله المسلم فى أى باب من أبواب الخير جهاد •

أنواع الجهاد :

ان الجهاد فى الاسلام أنواع متعددة ، فمنه :

١ - جهاد النفس :

وهذا النوع يكون بقهر النفس على التحلى بالمكارم والتخلى عن الرذائل وتعلم أمر الدين ، والسير على منهج خير المرسلين ، والعمل بأحكام شريعة رب العالمين • وهذا هو الجهاد الأكبر والمرتبة الأعلى فى الجهاد ، لأن المسلم لا يمكن أن يجاهد غيره الا اذا جاهد نفسه أولاً وقهرها وذللها • و (المجاهد من جاهد نفسه ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) •

٢ - جهاد الشيطان :

وهذا النوع من الجهاد انما يكون بدفع ما يأتى به من الشبهات وما يزينه

(١٤٧) انجيل متى ، الاصحاح العاشر ، عدد ٢٤ وما بعده •

(١٤٨) رواه البخارى وأبو داود النسائى والترمذى •

من الشهوات وما يحدثه من وساوس ، ولقد حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم منه لأنه يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، كما أمرنا الله سبحانه بالألا نتبع خطواته « يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم » (١٤٩) •

٣ - جهاد الكفار :

وهذا النوع من الجهاد هو أسمى درجات الجهاد وأرقاها ، لأنه يكون بالنفس والمال واللسان « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » (١٥٠) وقد روى أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم) (١٥١) •

٤ - جهاد المنافقين :

وهذا النوع يكون باقناعهم بالحجة الدامغة وارشادهم الى الاخلاص في القول والعمل « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » (١٥٢) •

٥ - جهاد النفساق :

وهذا النوع يكون باليد ، ثم باللسان ، ثم بالقلب كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان) (١٥٣) •

• (١٥٠) سورة النساء ٩٥

(١٤٩) سورة النور ٢١

(١٥١) رواه أحمد والنسائي والحاكم

(١٥٢) سورة التوبة ٧٣ •

(١٥٣) رواه مسلم والترمذي •

ومن الجهاد دعوة الناس الى الحق ، وحثهم على العمل بكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وترك مجالس السوء ، وهجر صحبة الأشرار ، ونبذ مودة العاصين ، وقطع كل صلة بالفاسقين ، وعلان الحرب على الضالين الغاوين المارقين ، ونصب العالم كله للارشاد والوعظ والهداية والنصيحة ، وتفهم الناس الآيات القرآنية، والآحاديث النبوية ، والأحكام الفقهية ، والسيرة النبوية ، وتاريخ أبطال الاسلام وحماته ، والاقبال على النصيحة ، والعمل بها ، والسعى لجنى ثمارها ، ومحبة الصالحين وزيارة المتقين ومودة العاملين والاستضاءة بأنوارهم والاقتداء بأفعالهم .

كل من يفعل ذلك فهو مجاهد ، وكل فعل من ذلك هو جهاد غير أن الجهاد الحقيقي من هذا كله هو ما قصد به وجه الله ، وأريد به اعلاء كلمته ورفع راية الحق ومطاردة الباطل ، وبذل النفس في مرضاة الله ، فاذا أريد به شيء دون ذلك من حظوظ الدنيا فإنه لا يسمى جهادا على الحقيقة ، فمن جاهد ليحظى بمنصب ، أو يظفر بمغرم ، أو يظهر شجاعة، أو ينال شهرة فإنه لا نصيب له في الأجر .

ان النية هي روح العمل ، فاذا تجرد منها كان عملا ميتا ، لا وزن له عند الله ، وان الاخلاص هو الذي يعطى الأعمال قيمتها الحقيقية ، ومن هنا فان المرء يبلغ بالاخلاص درجة الشهاداء وان لم يستشهد . واذا لم يكن الاخلاص هو الباعث على الجهاد ، بل كان الباعث شيئا آخر من أشياء الدنيا واعراضها لم يحرم المجاهد الثواب والأجر فقط ، بل انه بذلك يعرض نفسه للعذاب يوم القيامة .

التحذير من ترك الجهاد :

الجهاد هو ذروة سنام الاسلام ، وهو فريضة محكمة دائمة (١٥٤)

ولهذا يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : (فان نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا ، ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة فانه مشتمل من محبة الله تعالى والاخلاص له ، والتوكل عليه ، وتسليم النفس والمال له ، والصبر والزهد ، وذكر الله ، وسائر أنواع الأعمال ، على ما لا يشتمل عليه عمل آخر) (١٥٥) •

ومن هنا حذر الاسلام من ترك الجهاد أو اهماله ، لأن به حياة الأمة : واقامة الدين ، واعلاء كلمة الله • ولهذا اعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم ترك الجهاد خروجاً من الدين نستحق عليه الذل والهوان والمعذاب ، فقال عليه السلام : (اذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا الى دينكم) (١٥٦) وقال : (ما ترك قوم الجهاد الا عمهم الله بالعذاب) (١٥٧) •

ومعنى هذين الحديثين اننا اذا اهتممنا بشئوننا الحياتية فقط من بيع وشراء وتجارة وتربية ماشية وزرع وتركنا الجهاد سلط الله علينا ضعفا وامتهانا لا يرفعه حتى نعود الى ديننا وتطبيقه كنظام لحياتنا ، وكذلك عمنا الله بالعذاب النفسى والجسمى في الدنيا والآخرة والعباد بالله واذا كان القرآن والسنة قد حذرا من ترك الجهاد فان الصحابة رضى الله عنهم والسلف الصالح قد حذروا من تركه أيضا ، فهامو على ابن أبى طالب — كرم الله وجهه — بوجه حديثه لجنوده حاثا لهم على الجهاد والقتال ومحذرا من تركه ، فيقول : (أما بعد ، فان الجهاد باب من أبواب الجنة فتحة الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجنته الوثيقة • فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل،

(١٥٥) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٣٥٣ •

(١٥٦) رواه أبو داود وغيره •

(١٥٧) رواه الطبراني •

وشمله البلاء، وديث بالصغار والقماء (١٥٨) ، وضرب على قلبه بالاسداد،
 واديل الحق منه بتضييع الجهاد ، ومنع النصف ، الا وانى قد دعوتكم
 الى قتال هؤلاء ليلا ونهارا ، وسرا واعلانا ، وقلت لكم : أغزوهم قبل
 أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم الا ذلوا فتواكلتم
 وتخاذلتم حتى شنت الغارات عليكم ، وملكت عليكم الأوطان وهذا أخو
 غامد قد وردت خيله الانبار ، وقد قتل حسان بن حسان البكرى وازال
 خيلكم عن مسالحها ، ولقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة
 المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها وقلبها وقلائدتها ورعائتها
 ما تمتنع منه الا بالاسترجاع والاسترحام ، ثم انصرفوا وافرين مانال
 رجلا منهم كلم ولا أريق لهم دم • فلو أن امرأ مسلما مات من بعد هذا
 اسفا ما كان به ملوما ، بل كان به عندى جديرا فياعجبا والله يميم القلب ،
 ويجلب الهم ، من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ، وتفريقكم عن حقكم ،
 فقبحا لكم ، وترحا ، حين صرتم غرضا يرمى يغار عليكم ولا تغيرون ،
 وتغزون ولا تغزون ، ويعصى الله وترضون فاذا أمرتكم بالسير اليهم
 في أيام الحر قلتم : هذه حمارة القبيظ امهلنا ينسلخ عنا الحر ، واذا
 امرتكم بالسير اليهم في الشتاء قلتم : هذه صبارة القر امهلنا ينسلخ
 عنا البرد • كل هذا فرارا من الحر والقر ، فأنتقم — والله — من السيف
 أقر • يا أشباه الرجال ولا رجال ، حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال
 لوددت انى لم اركم ولم اعرفكم ، معرفة — والله — جرت ندما ،
 وأعقت سدما ، قاتلكم الله ، لقد ملأتم قلبي قيجا ، وشحنتم صدرى
 غيظا ، وجرعتمونى نعب التهامم انفاسا ، وافسدتم على رأبى بالعصيان
 والخذلان حتى قالت قريش ان ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا علم
 له بالحرب • لله ابوهم ! وهل أحد منهم أشد لها مراسا ، وأقدم فيها
 مقاماً منى ؟! لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، وها أنا قد ذرفت على
 الستين ولكنه لا رأى لن لا يطاع (١٥٩) •

(ب) حكم الجهاد

ان الجهاد مصطلح اسلامى واسع يستعمل على أنواع كثيرة غير أننا يهمنا أن نركز هنا على جهاد الكفار والمارقين بالقتال ، فما حكم هذا الجهاد ؟ •

لقد فرض الله — عز وجل — القتال وأوجبا في السنة الثانية من الهجرة وأوجبه سبحانه بقوله : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (١٦٠) •

غير أن القتال تارة يكون فرض كفاية ، وأخرى يكون فرض عين ، يقول ابن تيمية (كما أن الجهاد فرض على الكفاية ، إلا أن يتعين فيكون فرضا على الأعيان • مثل أن يقصد العدو بلدا ، أو مثل أن يستغفر الإمام أحدا) (١٦١) •

الجهاد فرض كفاية :

الجهاد ليس فرضا على كل فرد من المسلمين ، وإنما هو فرض على الكفاية إذا قام به البعض ، واندفع به العدو ، سقط عن الباقين • يقول عز من قائل : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » (١٦٢) ويقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا » (١٦٣) وقد فسر ابن عباس : (انفروا ثبات) أى سرايا متفرقين (١٦٤) وقال سبحانه : « لا يستوى

(١٦٠) سورة البقرة ٢١٦

(١٦١) ابن تيمية : مجموعة الفتاوى ، ج ٢٨ ، ص ٨٠ •

(١٦٢) سورة التوبة ١٢٢

(١٦٣) سورة النساء ٧١ •

(١٦٤) رواه البخارى •

المقاتلون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم - وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة - وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا » (١٦٥) • وروى عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بعثًا إلى بنى لحيان - من هذيل - فقال : (لينبعث من كل رجلين أحدهما ، والأجر بينهما) (١٦٦) •

فهذه الآيات والأحاديث تؤكد على أن الجهاد فرض كفاية ، لأن الجهاد لو كان فرض عين لتعطلت مصالح العباد الدنيوية وفسدت وخربت البلاد ، فوجب أن لا يقوم به إلا البعض •

الجهاد فرض عين :

يكون الجهاد فرض عين في الحالات الآتية :

١ - أن يحضر المكلف صف القتال ، فإن الجهاد يتعين في هذه الحال ، لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا » (١٦٧) ولقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار » (١٦٨) •

٢ - إذا حضر العدو المكان أو البلد الذي يقيم به المسلمون ، فإنه يجب على أهل البلد جميعًا أن يخرجوا لقتاله ، ولا يحل لأحد أن يتخلى عن القيام بواجبه نحو مقاتلته إذا كان لا يمكن دفعه إلا بتكتلهم عامة ، ومناجزتهم إياه • يقول عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلوونكم من الكفار » (١٦٩) •

• (١٦٦) رواه مسلم
• (١٦٨) سورة الأنفال ١٥

(١٦٥) سورة النساء ٩٥
(١٦٧) سورة الأنفال ٤٥
(١٦٩) سورة التوبة ١٢٣

٣ — اذا استنفر الحاكم أحدا من المكلفين فإنه لا يسعه أن يتخلى عن الاستجابة اليه ، لما رواه ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا) (١٧٠) أى اذا طلب منكم الخروج الى الحرب فاخرجوا •

متى فتح باب هذا الفرض ؟

لقد فتح باب هذا الفرض — كما قلنا — فى السنة الثانية من الهجرة النبوية ، ولقد مر الجهاد بأطوار ثلاثة :

الأول :

الاذن بالقتال ، ورد عدوان المعتدين ، وبذلك نزلت أول آية فى الجهاد تقول : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » (١٧١)

الثانى :

أوجب الله القتال لرد عدوان المعتدين ، دون من كف عن قتال المسلمين يقول سبحانه : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (١٧٢) • وقال سبحانه : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (١٧٣) •

الثالث :

فرض الله الجهاد لقتال الكفار والمشركين كافة ، مع البدء بالأقربين

-
- (١٧٠) رواه البخارى (١٧١) سورة الحج ٣٩ — ٤٠ •
 (١٧٢) سورة البقرة ١٩٤ (١٧٣) سورة البقرة ١٩٠ •

دارا • يقول تعالى : « وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » (١٧٤) •

(ج) الغرض من الجهاد

الاسلام دين سلام يمنع الحرب أيا كان نوعها ، لأن الحرب بجانب كونها اعتداء على الحياة — وهى حق مقدس لكل انسان — فهى تدمير لما تصلح به الحياة •

غير أن الاسلام دين عملى يواجه الحقائق البشرية والفطرية ويواجهه العضلات بالحل العملى ، فما دامت الموعظة الحسنة لا ترد الظلم والاعتداء وما دام أعداء الاسلام لا يرضون حسن الجوار والعهد القائم على الانصاف وحرية العقيدة ، وما دام أهل الشر قوى سلطان خطر فان الحرب واقعة بين الناس ، فلم يقف الاسلام أمام هذه الحقائق مكتوف اليدين بل واجهها بالحزم والعزم للذين لازما الرسول فى دعوته طوال حياته ، فأمر بالاستعداد لها : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » (١٧٥) • فجعل العدة نفسها للارهاب الذى قد يمنع الحرب ويحفظ السلم •

وحين لم يبق للمسلمين سبيل الا الحرب ، وأصبح حقهم فى ذلك واضحا ، أبيض القتال وكانت السلم هى المقصد الأسمى له لقوله تعالى : « فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » (١٧٦) • ولقوله تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (١٧٧) •

ان الحرب فى الاسلام انما جاءت لأغراض سامية محددة ، ولم تجيء لأغراض مادية غير مشروعة كتلك التى يقاتل الناس من أجلها ، كسيادة

• (١٧٤) سورة البقرة ١٩٣

(١٧٦) سورة البقرة ١٩٣

• (١٧٥) سورة الأنفال ٦٠

• (١٧٧) سورة الأنفال ٦١

عنصر على عنصر ، أو شعب على شعب ، أو استعلاء ملك على ملك ، أو طبقة من الطبقات الاجتماعية على طبقة أخرى ، أو توسيع رقعة مملكة ، أو أغراض حربية أو استراتيجية ، أو الأغراض الاقتصادية ، أو الاستئثار بالمواد الخام والأسواق التجارية ، أو تمدين المتخلفين عن الحضارة ، أو غير ذلك مما تتخذه الدول وسيلة لاشعال الحرب ونقض العهد وهدم السلم الدائمة ، فليس ذلك في شيء مما أباح الاسلام القتال لأجله ، ذلك لأن غايات الاسلام انسانية سامية يعم نفعها الناس جميعا ، ونظرته علوية تقع على البشر جميعا كاسرة واحدة متكافلة ، والله سبحانه ليس رب المسلمين وحدهم بل رب العالمين أجمعين •

فالاسلام يمنع حرب التوسع ، وبسط النفوذ ، وسيادة القوى فيقول : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » (١٧٨) ويمنع حرب الانتقام والعنوان فيقول : « ولا يجرمكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واثقوا الله أن الله شديد العقاب » (١٧٩) • ويمنع حرب التخريب والتدمير فيقول : « ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها » (١٨٠) •

لكن ما هو الغرض من القتال أو الجهاد في الاسلام ؟
ان هناك غرضا عاما للجهاد كما ان هناك أغراضا خاصة نفصل هذا الغرض العام •

أما الغرض العام للجهاد فقد عبر عنه شيخ الاسلام ابن تيمية بقوله : (والجهاد مقصوده أن يكون الدين كله لله ، وأن تكون كلمة الله هي العليا) (١٨١) •

(١٧٨) سورة القصص آية ٨٣ (١٧٩) سورة المائدة آية ٢ •

(١٨٠) سورة الاعراف آية ٥٦ •

(١٨١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٢٣ •

وأما الأغراض الخاصة فهي غرضان اثنان :

الغرض الأول :

الدفاع عن الدعوة الى الله وتأمين وصولها الى عقول الناس دون عائق اذا وقف أحد في سبيلها بتعذيب من آمن بها أو بصد من أراد الدخول فيها أو بمنع الداعي من تبليغها • قال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين • واقتلوهم حيث ثقفتهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » (١٨٢) ويقول سبحانه : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » (١٨٣) •

وبعد ذلك فكل من بلغته الدعوة فهو حر في أن يدخل في هذا الدين أو لا يدخل، يؤمن أو لا يؤمن « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (١٨٤)

الغرض الثاني :

رد العدوان والدفاع عن النفس والعرض والمال والوطن عند الاعتداء • قال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (١٨٥) وقال سبحانه : « وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » (١٨٦) وقال صلى الله

(١٨٢) سورة البقرة ١٩٠ - ١٩٣ •

(١٨٣) سورة النساء ٧٥ •

(١٨٤) سورة الكهف ٢٩ •

(١٨٥) سورة البقرة ١٩٠ •

(١٨٦) سورة البقرة ٢٤٦ •

عليه وسلم : (من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد) (١٨٧) •

وهكذا يتضح لنا أن الاسلام حين أباح الحرب فقد علل هذه الاباحة وحدد المقاصد والأغراض منها ، فالغرض من الحرب في الاسلام يتلخص في دفع الظلم ، واحترام حق الإقامة ، والحرية في الوطن ، ومنع الفتنة في الدين ، وكفالة حرية العقيدة للناس جميعا •

(د) شروط الجندية

ان هناك شروطا أو صفات يجب أن تتحقق في كل من الجندي والقائد لكي يؤدي فريضة الجهاد في سبيل الله ، فمن اجتمعت فيه هذه الصفات أو الشروط فهو من اهل فرض الجهاد بالاتفاق •

أولا : صفات الجندي :

يشترط في وجوب الجهاد سبعة شروط :

١ — الاسلام ، أما الكافر فلا جهاد عليه ، لأن الله خاطب المؤمنين دون الكافرين فقال : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » (١٨٨) وأيضا فان الكافر يدفع الجزية لندافع عنه لا ليدافع عنا •

٢ — البلوغ ، فلا يجب على الصبي لقوله تعالى « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج » (١٨٩) والصبيان من الضعفاء لضعف أبدانهم ، ولأنه عليه الصلاة والسلام رد

(١٨٧) رواه أبو داود والترمذي والنسائي •

(١٨٨) سورة التوبة ١٢٣ •

(١٨٩) سورة التوبة ٩١ •

زيد بن ثابت ورافع بن خديج والبراء بن عازب وابن عمر رضى الله عنهم يوم بدر واستصغروهم فقد روى ابن عمر رضى الله عنهما فقال : (عرضت على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فرددنى، ولم يجزنى في القتال ، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى) (١٩٠) *

٣ — العقل ، فالمجنون غير مكلف فلا يجب عليه *

٤ — الحرية ، فلا جهاد على رقيق لقوله تعالى « ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج » والرقيق لا مال له فلا يجب عليه الجهاد *

٥ — الذكورة ، فلا يجب الجهاد على المرأة لقوله تعالى : « يا أيها النبي حرص المؤمنين على القتال » (١٩١) ولا يدخل في المؤمنین النساء الا بدليل * غير أن بعض الباحثين المحدثين يرى أن الجهاد يجب على النساء أيضا * فاللواء الركن محمود شيت خطاب يقول في هذا الصدد (ولا يقتصر التجنيد على الرجال البالغين ، بل يشتمل النساء البالغات أيضا ، فقد استصحب الرسول النساء في غزواته ، بل كان يصحب أزواجه بالاقتراع * ولم يعترض أحد على اشتراك النساء في الحرب على عهد الخلفاء الراشدين والأمويين * فلما جاء العباسيون ظهر بعض الفقهاء الجامدين ، فأضافوا الى شروط الخدمة العسكرية شرطا خامسا وهو الذكورة ، فحرموا الجيش من عنصر فعال يزيد في عدته ومعنوياته) (١٩٢) *

لكننا نرى — من جانبنا — أن هذا الرأي لا دليل عليه يؤكد من قرآن وسنة ، بل أن هناك أحاديث صريحة تذهب الى أن جهاد النساء

(١٩٠) متفق عليه * (١٩١) سورة الأنفال ٦٥ *

(١٩٢) محمود شيت خطاب : الرسول القائد، الطبعة الثانية ص ٣٠

(٧ — الأخلاق)

هو الحج والعمرة فقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : (قلت يارسول الله هل على النساء جهاد ؟ قال : جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة) (١٩٣) وفي رواية : لكن أفضل الجهاد : حج مبرور .

وقد جاء في البخارى ومسلم ما يدل على أن جهادهن اذا حضرن مواقف الجهاد : سقى الماء ومداواة الجرحى ومناولة السهام ، ومعنى ذلك أن المرأة لا تكلف بالخروج ولكن اذا خرجت وحضرت الموقعة كان لها أن تجاهد بما يدخل في طاقتها من خدمات نافعة للمجاهدين تعينهم في جهادهم .

فالأحاديث تدل على أنه لا يجب الجهاد على المرأة وعلى أن الثواب الذى يقوم مقام الجهاد الذى يقوم به الرجل هو حج المرأة واعتمارها، لأن النساء مأمورات بالستر والسكون ، والجهاد ينافى ذلك ، لما فيه من مخالطة الأقران والمبارزة والكر والفر والتعرض للأسر ، فلا يكون ملائماً لحالات النساء ، كما أن النساء سريعات التأثر بالمناظر الرهيبة التى تنتج عن القتال ، والحرب تحتاج الى جلادة ليست متوافرة فى المرأة ، فتكون الحكمة ظاهرة فى إسقاط الوجوب عن النساء لصيانتهم وتوفير الكرامة لهن .

٦ - الصحة ، فلا يجب على معتل الصحة ، كالأعمى والمريض والأعرج لأنهم لا يقدرّون على الجهاد ، ولهذا قال الله تعالى : « ليس الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج » (١٩٤) .

٧ - الطاقة على القتال ، فلا يجب على الفقير الذى لا يجد ما ينفق على نفسه وعياله ، لقوله تعالى : « ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج » نعم اذا كان العدو بباب بلدة فلا يشترط وجود النفقة .

وهذا كله اذا لم يطمأ الكفار بلد المسلمين ، فإن وطؤوها ودخلوا على المسلمين وعلم كل واحد ان أخذه الكفار قتلوه فعليه أن يدفع عن

(١٩٣) رواه أحمد والبخارى .

(١٩٤) سورة النور ٦١ .

نفسه بما أمكن ، ويستوى في ذلك الحر والعبد والمرأة والأعمى والأعرج والمريض • لأنه قتال دفاع عن الدين والوطن لا قتال غزو فيلزم كل مطيق •

صفات الجندي الممتاز :

من صفات الجندي الممتاز ما يأتي :

١ — عقيدة راسخة وشجاعة فائقة • يقول ابن تيمية : (من شرط الجندي أن يكون ديناً شجاعاً ••• الناس على أربعة أقسام : أعلاهم الدين الشجاع ، ثم الدين بلا شجاعة ، ثم عكسه ، ثم العري عنهما) (١٩٥) •

٢ — معنويات عالية •

٣ — ضبط قوى •

٤ — تدريب جيد •

٥ — تنظيم صحيح •

٦ — تسليح ممتاز (١٩٦) •

واجب الجنود :

وواجب الجنود بالنسبة لقائدهم : الطاعة في غير معصية ، فقد روى عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني) (١٩٧) •

(١٩٥) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٢٦ •

(١٩٦) محمود شيت خطاب : الرسول القائد ص ٣٢٦ •

(١٩٧) رواء البخاري •

ثانيا : صفات القائد :

يجب أن تتوفر في القائد الصفات التي يجب توفرها في كل جندي مجاهد ، ويزيد هنا أنه يجب أن يتحلى بالصفات الآتية ، والتي تجعل منه قائدا ممتازا :

- ١ — أن يكون ذا قرار صحيح وسريع • وهذا يعتمد على الاستعداد العقلي للقائد ، والحصول على المعلومات •
- ٢ — أن يكون ذا شجاعة شخصية •
- ٣ — أن يكون ذا ارادة قوية ثابتة •
- ٤ — أن يكون قادرا على تحمل المسؤولية •
- ٥ — أن يكون ذا نفسية لا تتبدل •
- ٦ — أن يكون بعيد النظر •
- ٧ — أن يكون فاهما لنفسيات الآخرين واستعداداتهم •
- ٨ — أن يتمتع بالثقة المتبادلة بينه وبين من يقودهم •
- ٩ — أن يتمتع بالاحبة المتبادلة بينه وبين من يقودهم •
- ١٠ — أن يكون ذا شخصية قوية نافذة •
- ١١ — أن يكون ذا لياقة بدنية •
- ١٢ — أن يكون ذا ماض ناصع مجيد •
- ١٣ — أن يكون عارفا لمبادئ الحرب وتطبيقاتها (١٩٨) •

ومن الجدير بالذكر القول بأن هذه الصفات السابقة كانت متحققة في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم خير تحقق •

وقد عد (الفخري) في كتابه الآداب السلطانية الصفات التي يجب أن تتوافر في قائد الجيش ، فقال : قال بعض حكماء الترك : ينبغي أن يكون في قائد الجيش عشر خصال من أخلاق الحيوان ، جرأة الأسد ، وحيلة الخنزير ، وروغان الثعلب ، وصبر الكلب على الجراح ، وغارة الذئب ، وحراسة الكركي ، وسخاء الديك ، وشفقة الديك على القواريج ، وحذر الغراب ، وسمن (تعرو) وهي دابة تكون بخراسان تسمن على السفر والكد (١٩٩) •

واجب القائد :

أما واجب القائد بالنسبة للجنود فهو ما يأتي :

١ — مشاورتهم وأخذ رأيهم ، وعدم الاستبداد بالأمر دونهم لقوله تعالى : « وشاورهم في الأمر » (٢٠٠) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (ما رأيت أحدا قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٠١) •

٢ — الرفق بهم ، ولين الجانب لهم ، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم ، فارفق به) (٢٠٢) •

وروى معقل بن يسار أنه صلى الله عليه وسلم قال : (ما من أمير يلى أمور المسلمين ، ثم لا يجتهد لهم ، ولا ينصح لهم الا لم يتخل الجنة) وروى عن جابر رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخلف عن المسير ، فيزجي الضعيف ، ويردق ، ويدلهم) (٢٠٣) •

(١٩٩) نقلا عن السيد سابق : فقه السنة ج ٣ ص ٤٥ •

(٢٠٠) سورة آل عمران ١٥٩ •

(٢٠١) رواه أحمد •

(٢٠٢) رواه أبو داود •

(٢٠٣) رواه مسلم

٣ — الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى لا يتورطوا في المعاصي..

٤ — تفقد الجيش حيناً بعد حين ، ليكون على علم بجنوده ، يمنع من لا يصلح للحرب من رجال ، وأدوات ، مثل المخذل وهو الذي يزهد الناس في القتال والمرجف الذي يطلق الشائعات ، فيقول : ليس لهم مدد ولا طاقة.. وكذلك من ينقل أخبار الجيش وتحركاته ، أو يثير الفتنة .

٥ — تعريف العرفاء وعقد الالوية والرايات .

٦ — تخيير المنازل الصالحة ، وحفظ مكانها وبث العيون ليعرف حال العدو .

ثالثاً : من توصيات القادة لجنودهم :

لقد حفل تاريخنا الاسلامي بقيادة عظام عرفوا كيف يسوسون جنودهم ويجتلبون النصر على أعدائهم بما يتحلون به من صفات الجندي والقائد الممتازين . وها نحن نسوق توجيها من هذه التوجيهات الخالدة لقائد عظيم هو عمر بن الخطاب الى قائد عظيم هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما .

فقد كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ومن معه من الأجناد .

(أما بعد ، فاني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فان تقوى الله أفضل العدة ، وأقوى المكيذة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم ، فان ذنوب الجيش اخوف عليهم من عدوهم .

وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عدونا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فان استوتينا

في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، والا ننصر عليهم بفضلنا
لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون
ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله
ولا تقولوا ان عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا ، قرب قوم سلط عليهم
شر منهم ، كما سلط على بنى اسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار
المجوس ، فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ، اسألوا الله المعون
على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم • اسأل الله ذلك لنا ولكم •

وترفق بالمسلمين في سيرهم ، ولا تجشمهم سيرا يتعبهم ولا تقتصر
بهم عند منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ،
فانهم سائرون الى عدو مقيم ، حامى الانفس والمكراع ، واقم بمن معك
في كل جمعة يوم وليلة ، حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ،
ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ،
فلا يدخلها من أصحابك الا من تشق بدينه ، ولا يرزأ أحدا من أهلها
شيئا ، فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ،
فما صبروا لكم فنولوهم خيرا ، ولا تستتصروا على أهل الحرب بظلم
أهل الصلح •

وإذا وطئت أرض العدو ، فأذاك العيون بينك وبينهم ، ولا يخفى
عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب ، أو من أهل الأرض من تطمئن
الى تصحه وصدقه ، فان الكذب لا ينفك خبره ، وان صدقك في بعضه ،
والعاش عين عليك وليس عينا لك •

وليكن منك عند دنوك من أرض العدو ان تكثر الطلائع ، وتبث
السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا امدادهم ومرافقهم ، وتتيقن
للائع عوراتهم •

وانتق للطلائع أهل الزأى والبأس من أصحابك ، وتخير لهم
سوايق الخيل ، فان لقوا عدوا كان أول من تلقاهم القوة من رأيك •

واجعل أمر السرايا الى أهل الجهاد والصبر على الجلال ولا تخص بها أحدا بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ، ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف منه غلبة أو صنيعه أو نكاية .
فاذا عاينت العدو فاضمم اليك أقاصيك ، وطلائعك ، وسراياك ، واجمع اليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك .

ثم اذك على عسكريك ، وثيقظ من البيات (٢٠٤) جهديك ، ولا تمر بأسير له عقد الا ضربت عنقه ، لترهب به عدو الله وعدوك .
والله ولي أمرك ومن معك ، وولى النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان (٢٠٥) .

يمثل هذا فليأمر القادة جنودهم ، ويمثل هذا فليأتمر الجنود حتى يحققوا النصر على عدوهم .

(هـ) نظام القتال في الاسلام

يمكن القول بأن هناك توجيهات عامة ومبادئ أساسية لنظام القتال في الاسلام لا تتغير بتغير الأمكنة والأزمنة ، سواء ما يتعلق منها بمرحلة السلم أو بمرحلة الحرب . وبعبارة أخرى هناك قواعد ومبادئ تتعلق بفترة ما قبل الحرب ، وهناك قواعد ومبادئ تتعلق بعملية القتال نفسها .

أولا — ما قبل الحرب :

ان الاسلام يهتم اهتماما شديدا باعداد أبنائه لكي يكونوا محاربين أشداء يحرزون النصر على عدوهم من أقرب الطرق وأسرع السبل .

(٢٠٤) البيات : الإنجازات الليلية من العدو .

(٢٠٥) نقلا عن السيد سابق : فقه السنة ج ٣ ص ٤٨ — ٤٩ .

ومن هنا ركز الاسلام على مسألة الاستعداد الدائم لقتال أعدائه
سواء من الناحية المعنوية أو من الناحية المادية •

١- من الناحية المعنوية :

فمن الناحية المعنوية عمل الاسلام على بث روح الجهاد في المقاتلين
وتقوية معنوياتهم فوعدهم بمضاعفة الأجر والثواب لهم ، لأنهم يقاتلون
في سبيل الله لاعلاء كلمته ، ولأنهم يدافعون عن المستضعفين والمقهورين
من المسلمين • قال تعالى : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة
الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه
أجرا عظيما » (٢٠٦) •

ومن أجل هذا حارب الاسلام عوامل الضعف ونزعات الخوف
وغرس في نفوس المسلمين خلق المشجاعة والتضحية والاستهانة
بمخاريف الدنيا في سبيل نصره الحق ومحبة الله ورسوله • قال سبحانه :
« قل ان كان آباؤكم وأبنائكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال
اقتربتكموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من
الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى
القوم الفاسقين » (٢٠٧) •

وزيادة في تقوية الروح المعنوية لدى المقاتلين فان الله يمد المجاهدين
بالملائكة لتطمئن قلوبهم وتقوى معنوياتهم •

وقد ضرب أسلافنا الأولون أروع الأمثلة على ارتفاع الروح
المعنوية ، ويكتفى أن نشير هنا الى ما حدث في معركة أحد ، عندما أحاط
المشركون بالمسلمين ، وقصد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ودافع عنه نفر من المسلمين نحو عشرة حتى قتلوا ، ثم جالدهم طلحة

ابن عبد الله حتى أجهدهم عنه ، وترس عليه أبو دجانة بنفسه ، حتى أن النبيل الذي كان يرميه المشركون كان يقمع على ظهر أبي دجانة وهو لا يتحرك (٢٠٨) •

فالاستعداد بالقوة المعنوية لا يقل أهمية عن الاستعداد بالقوة المادية • لأن الجيوش التي لا تؤمن بما تدافع عنه لا ينتظر منها النصر بسهولة على أعدائها ، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوى همة الجيش قبل المعركة ويثير فيهم البطولة وحب الاستشهاد في سبيل الله • الأمر الذي كان يدفعهم الى بذل كل طاقاتهم في محاربة أعدائهم ومناجزتهم •

٢ - من الناحية المادية :

واذا كان الاستعداد المعنوي مهما فان المعنويات لا تحقق شيئا بدون القوة المادية •

ولهذا أمر الله سبحانه باعداد القوة المادية على قدر الاستطاعة فقال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » (٢٠٩) • فالغرض من اعداد القوة هو تأمين السلم والاستقرار بارهاب العدو حتى لا تحدثه نفسه باستغلال ناحية من نواحي الضعف أو التخاذل • قال تعالى « ود الذين كفروا لم يغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » (٢١٠) •

ومن هنا أمر الاسلام بتعلم فنون القتال واجادتها وعدم اهمالها والتقريط فيها •

(٢٠٨) محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم ج ٤ ص ١٠١ •

(٢٠٩) سورة الأنفال ٦٠ (٢١٠) سورة النساء ١٠٢ •

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : (الرمي في سبيل الله ، والطعن في سبيل الله ، والضرب في سبيل الله ، كل ذلك مما أمر الله تعالى به ورسوله ، وقد ذكر الله تعالى الثلاثة ، فقال تعالى : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منّا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » وقال تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ليلوونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم » وقال تعالى : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم » وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ على المنبر هذه الآية فقال : (ألا ان القوة الرمي ! ألا ان القوة الرمي ! ألا ان القوة الرمي !) وثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال : (ارموا واركبوا ! وان ترموا أحب الىّ من أن تركبوا ، ومن تعلم الرمي ثم نسيه فليس منا) وفي رواية (ومن تعلم الرمي ثم نسيه فهي نعمة جحدّها) * وفي السنن عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل ، الا رميه بقوسه وتأدييه فرسه وملاعبته امرأته : فانهن من الحق) وقال : (ستفتح عليكم أرضون ويكتبكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسبهمه) * وقال مكحول : كتب عمز بن الخطاب الى الشام : أن علموا أولادكم الرمي والفروسية * وفي صحيح البخاري عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ارموا بنى اسماعيل فان أباكم كان راميا) (٢١١) *

واذا كان الاسلام يأمر بالتدريب الجيد على فنون القتال وبتحصيل اللياقة البدنية للجنود فإنه يحث على انشاء المصانع الحربية لانتاج الأسلحة ويذكر الحديد بصفة خاصة للاستفادة منه في الأغراض.

الحربية • قال سبحانه : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز » (٢١٢)

ومن المسلم به أن القوة التي أمرونا الله عز وجل بأعدادها تختلف حسب مظاهر قوة كل عصر ، فالواجب على المسلمين هو متابعة وملاحقة كل تقدم في هذا المجال •

وعلى الرغم من أن وسائل الحرب قد تطورت بصورة هائلة في عصرنا هذا إلا أن هذا التطور يؤكد باستمرار أن الرمي الذي حث الرسول صلى الله عليه وسلم على تعلمه هو أهم وسائل القوة ، ووسائله الآن متعددة ، فالطائرات والصواريخ والدبابات والمدافع والغواصات والبراجات كلها تعد من أسلحة الرمي التي يجب علينا أن نتعلمها ونجيد الرمي بها لتكون لنا الشوكة على أعدائنا •

ثانياً - أثناء الحرب :

يشرع المسلمون في قتال عدوهم بعد أن يعلنوه بالحرب صراحة ، لأنهم لا يخونون أحدا ولا يغدرون بأحد • قال تعالى : « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين » (٢١٣) •

فاذا أعلنت الحرب ودعا داعي الجهاد فلا يجوز التباطؤ والمتناقل عنه لما يترتب على ذلك من آثار خطيرة • قال سبحانه : « ياأيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثابة لستم الى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل • الا تتفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضره شيئا والله على كل شيء قدير » (٢١٤) •

(٢١٢) سورة الحديد ٢٥
(٢١٣) سورة الأنفال ٥٨ •
(٢١٤) سورة التوبة ٣٨ - ٣٩ •

ويعاقب الاسلام كل من يتخلف عن الحرب عقاباً نفسياً ، فيهجره أهله حتى زوجه ، كما يهجره المسلمون جميعاً ويقاطعونه وينظرون اليه نظرة احتقار وازدراء • قال عز من قائل : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا » (٢١٥) •

ركائز القتال :

يقوم القتال في الاسلام على عدة ركائز من أهمها :

١ - القتال بأسلوب الصف :

ينظم الاسلام مواضعه الدفاعية ويوزع وحداته على تلك المواضع ، لقوله تعالى : « واذا غدوت من أهلك تبوئ المؤمنون مقاعد للقتال ، والله سميع عليم » (٢١٦) •

وابتكر أسلوب الصف الذي لم تعهده العرب حيث كانت تقاتل بأسلوب الكر والفر : يقول تعالى : « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » (٢١٧) •

٢ - استخدام الخداع والكذب :

يجوز في الحرب الخداع والكذب للتضليل العدو مادام ذلك لم يشتمل على نقض عهد أو اخلال بأمان • ومن الخداع أن يخادع المقائد الأعداء بأن يوهمهم بأن عدد جنوده كثيرة كاثرة وأن عتادة قوة لا تقهر • فقد روى جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الحرب خدعة) (٢١٨) •

(٢١٥) سورة التوبة ١١٨ •

(٢١٦) سورة آل عمران ١٢١ •

(٢١٨) رواه البخاري •

(٢١٧) سورة الصف ٤

وروى عن أم كلثوم بنت عقبة رضى الله عنها ، قالت : (لم اسمع النبي صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب مما يقول الناس الا في الحرب ، والاصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها) (٢١٩) وكان الرسول صلى الله عليه وسلم اذا أراد غزوة ورى بغيرها تضليلا للعدو .

٣ - منع من لا يصلح للحرب من الحرب :

يجب على القائد أن يمنع من لا يصلح للحرب من أدوات ورجال ، مثل المخذل وهو الذى يزهد الناس فى القتال ، والمرجف الذى يطلق الشائعات وكذلك من ينقل أخبار الجيش وتحركاته ، أو يثير الفتنة .

٤ - وجوب الثبات أمام العدو :

لا يجوز الفرار من العدو عند ملاقاته ، بل يجب الثبات حتى لو غلب على ظن المجاهد أنه اذا ثبت أمام العدو قتل ، لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا » (٢٢٠) . ولقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار » (٢٢١) . وقد اعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم (الفرار) من السبع الموبقات . غير أن وجوب الثبات هذا مشروط بشرطين :

١ - أن يكون عدد الأعداء لا يزيد على ضعف عدد المسلمين ، فان زاد عدد الأعداء على المثلين جاز الفرار لجيش المسلمين ، أما اذا كان ضعفا فقط أو أقل من ذلك فانه لا يجوز الفرار منه قال تعالى : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين » (٢٢٢)

(٢١٩) رواه مسلم (٢٢٠) سورة الأنفال ٤٥
(٢٢١) سورة الأنفال ١٥ (٢٢٢) سورة الأنفال ٦٦

٢ — أن لا يقصد بفراره أن يتحيز الى فئة من المسلمين ليتقوى بهم على العدو ، أو أن ينحاز الى موضع يكون أنسب له في القتال . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (٢٢٣) فاذا قصد أحد هذين الأمرين جاز له أن يفر من مكانه .

تلك هي أهم الركائز التي ييسر عليها القتال في الجهاد الاسلامي وهي ركائز لكل زمان ومكان .

آداب الحرب وأخلاقياته

لقد عرف الاسلام الحرب شرا واقعا بين الناس فأحاطها بأدب عام من تعيين غرضها ، وحصرها في دفع العدوان وحماية حرية العقيدة ، وانهاؤها بالعهد المصونة العادلة ، وأحاطها — أيضا — بأدب خاصة في أثناء الحرب نفسها ، وفيما يجب أن يكون بين المتحاربين من عرف يرعونه .

من هذه الآداب الخاصة ما يلي :

١ — انذار العدو بالحرب :

فمتى وقع بين المسلمين وغيرهم ما يستوجب الحرب ، وجب على المسلمين أن يندروا عدوهم بنيتهم ويعلنوه بالحرب ، ويمهلوه للرد والتفاهم ان أراد . فالاسلام لا يعرف الغدر والخيانة حيث يقول جل شأنه : « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين » (٢٢٤) .

(٢٢٣) سورة الأنفال ١٥ — ١٦ .

(٢٢٤) سورة الأنفال ٥٨ .

وقد قال بعض الفقهاء : ان المهلة التي تعقب ما يسمى اليوم بالانذار النهائي يجب أن تكون كافية ليخبر العدو بها أطراف أهله وتداولته (٢٢٥) وهو أدب يتفق مع القانون الدولي الحديث •

واذا كان هناك عهد بين المسلمين وغيرهم ، ثم ظهرت علامات تدل على أن العدو يريد خيانة للمسلمين ويستعد للهجوم عليهم ، فإنه يجوز لهم أن يلغوا هذا العهد الذي كان بينهم وبين هذا العدو ، غير أنه لابد — أيضا — من اعلانه بهذا الالغاء حيث لا يجوز أن يهاجموه ويأخذوه على غرة (٢٢٦) •

ان هذا لأدب عظيم من آداب الحرب في الاسلام يظهر مدى كره الاسلام للغدر والخيانة والخديعة التي افتن أهل الحضارة الحديثة في أحكامها عند مباغطة أعدائهم وأخذهم على غرة من غير انذار لهم بالحرب •

٢ — حماية حقوق المستأمن :

والاسلام بعد أن ينذر العدو بالحرب ، وبعد أن تنتقطع الحجة ، لا يلجأ الى مثل ما تلجأ اليه الدول في العصر الحديث من مفاجأة المستأمنين المنتسبين للعدو في ديارها من رعايا الدولة أو الجماعة التي أعلنت عليها الحرب ، فللمستأمن — في الاسلام — حقوق لا يمكن العدوان عليها لمجرد وقوع الحرب بين قومه والقوم الذين ينزل ديارهم ، أو يقع في متناول سلطانهم ، فلا يجوز الاعتداء عليه بمصادرة ماله ، أو الاضرار بعمله أو شخصه ، وله كفالة كل ذلك حتى تهيأ له العودة الى وطنه الأصلي ويدخل في حماية قومه • وفي هذه الحالة يجري عليه ما يجري على المحاربين • قال سبحانه : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » (٢٢٧) •

(٢٢٥) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة ص ١٠٦ •

(٢٢٦) محمد الخضر حسين : آداب الحرب في الاسلام ص ١٥ •

(٢٢٧) سورة التوبة ٦ •

لقد بلغ من حرص المسلمين على 'احترام حق المقيم في ديارهم والنازل بها عن رضا منهم قبل الحرب أو حتى أثناء الحرب' ، أن قرر فقهاؤهم أنه يجب على الامام اذا وقت للمستأمن مدة ألا يجعل هذه المدة قليلة كالشهر أو الشهرين ، فان في ذلك الحاق العسر به خصوصا اذا كانت له معاملات تحتاج الى زمن طويل في اقتضاءها (٢٢٨) .

وقد بلغ من انصافهم هذا الأجني المقيم في ديارهم ، والذي يقاتلون أهله ودولته ، أن أباحوا له التمتع بكامل حريته ، كأن لم تكن بينهم وبين أهله حرب ، مادام خاضعا لأحكامهم ، مستقيما في سيره وعمله ولم يركن الى أذاهم بحال من الأحوال .

أقام الاسلام هذا الأدب مع المستأمن في حالة الحرب على أساس العدل والانصاف ، وما الحروب في جملتها الا نتائج مباشرة لفقدان العدل والانصاف بين الناس .

٣ - مسألة غير المحاربين :

اذا كان الاسلام قد أباح الحرب كضرورة من الضرورات الاجتماعية فانه يجعلها مقدرة بقدرها ، فلا يقتل الا من يقاتل في المعركة ، وأما من تجنب الحرب فلا يحل قتله أو التعرض له بحال من الأحوال .

فمن القواعد الأساسية التي بنى عليها أدب الحرب في الاسلام ذلك المبدأ السامي ، وهو الامتناع عن محاربة غير المحاربين وقصدهم بالأذى ، فهو لا يجيز قتل الشيخ أو الصبي أو المرأة أو العجزة ، أو العامة من الصناع والتجار والزراع الذين لا يقاتلون أو العباد والرهبان والأجراء ، أو بعبارة أعم تلك الطبقات التي نطلق عليها اليوم اسم (المدنيين) .

(٢٢٨) عبيد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة ص ١٠٧ .

هؤلاء المدنيون لا يجوز قتلهم ، وقد بلغ من حرص الاسلام على تجنبهم ويلات الحرب وابعاد شرها عنهم ، وحصر الضرر في القوات المقاتلة ان الفقهاء قالوا بوقف القتال اذا وقع بين صفوف المقاتلين من لا يجوز قتله وكان هلاكه محققا بالاستمرار في القتال .

ان القرآن الكريم ووصايا النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين في تحريم قتل غير المحاربين لتؤكد هذا الأدب العظيم للحرب في الاسلام .

فقد روى عن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (انطلقوا باسم الله ، وبالله ، وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخا فانيا ، ، ولا طفلا صغيرا ، ولا امرأة ، ولا تغلوا ، وضموا غنائمكم ، واصلحوا واحسنوا ان الله يحب المحسنين) (٢٢٩) .

وقد أوصى أبو بكر رضى الله عنه أسامة حين بعثه الى الشام بقوله: (لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيرا ، الا للأكله ، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع (يريد الرهبان) فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له) .

وكذلك كان يفعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد أوصى بقوله: (لا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليدا ، واتقوا الله في الفلاحين) . وكان من وصاياه لأمرأه جنوده : (ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ، ولا وليدا . وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان ، وعند شن الغارات) (٢٣٠) .

(٢٢٩) رواه أبو داود .

(٢٣٠) السيد سابق : فقه السنة ج ٣ ص ٦٠ .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : (وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة ، كالنساء والصبيان ، والراهب والشيخ الكبير ، والأعمى ، والزمن ونحوهم فلا يقتل عند جمهور العلماء ، الا أن يقاتل بقوله أو فعله) (٢٣١) •

٤ — عدم القسوة عند التمكن من العدو :

ليس المقصود من الحرب في الاسلام التتكيل والتخريب ، بل أن تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الله لا تكون الا حقا وعدلا وانصافا شاملا للناس جميعا •

ولهذا جعل من آداب الحرب مبدأ الرفق والرحمة ، فلا يجوز التمثيل بالمقتولين ولا الاجهاز على الجرحى ولا تتبع الفار من الحرب ولا قتل الحيوان ولا تخريب العمار ، ولا افساد الزروع والأشجار ولا تلويث المياه ولا هدم البيوت • وذلك لأن الحرب كعملية جراحية لا يجب أن تتجاوز موضع المرض بمكان •

٥ — الاحسان الى الأسرى :

من أدب الحرب في الاسلام الاحسان الى الأسير حتى انه جعله « من المستحقين للبر ، متساويا في ذلك مع أيتام المسلمين وفقرائهم • قال تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا • انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » (٢٣٢) •

ومن الاحسان الى الأسير في الاسلام أن لا يفرق في الأسر بين والد وولده ولا بين أخ وأخيه ، ولا أن يقتل أسير ، وأن يعامل معاملة طيبة •

(٢٣١) ابن تيمية : مجموعة الفتاوى ج ٢٨ ص ٣٥٤ •

(٢٣٢) سورة الانسان ٨ •

٦ - مجاملة رسل العدو :

ان من آداب الحرب في الاسلام أن يجامل رسل العدو بما يليق .
وأن يعاملوا بطريقة كريمة تتمشى ومبادئ الاسلام السمحة *

تلك هي أهم آداب الحرب في الاسلام وفيها ما يدل على عظمة
الاسلام وما ينطوى عليه من رحمة حتى في أثناء الحرب بينه وبين أعدائه *

(ز) فضل الجهاد والمجاهدين

الجهاد اعلاء لكلمة الله وتمكين لهدايته في الأرض ، وتركيز للدين
الحق ، ومن هنا كان أفضل نوع من أنواع التطوع ، فهو أفضل من تطوع
الحج والعمرة ، وأفضل من تطوع الصلاة والصوم ، بل ومن أفضل
الأعمال على الإطلاق *

قال تعالى : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن
آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستترون عند الله ، والله
لا يهدي القوم الظالمين » الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله
بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون * يبشرهم
ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدون فيها
أبدا ان الله عنده أجر عظيم » (٢٣٣) *

وقال سبحانه : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى
الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين
بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى » (٢٣٤)

(٢٣٣) - سورة التوبة ١٩ - ٢٢ .

(٢٣٤) سورة النساء ٩٥ *

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أفضل ؟ قال :
(إيمان بالله ورسوله • قيل : ثم ماذا ؟ قال : ثم جهاد فى سبيله • قيل :
ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور) (٢٣٥) وروى عن سلمان الفارسى أن النبي
صلى الله عليه وسلم قال : (رباط يوم وليلة فى سبيل الله خير من صيام
شهر وقيامه ، ومن مات مرابطا مات مجاهدا ، وأجرى عليه رزقه من
من الجنة وأمن الفتان) (٢٣٦) وقال أبو هريرة : (لأن أرباط ليلة فى
سبيل الله أحبّ الىّ من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود .)

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية (بل المقام فى ثغور المسلمين
كالثغور الشامية والمصرية أفضل من المجاورة فى المساجد الثلاثة ، وما
أعلم فى ذلك نزاعا بين أهل العلم ، وقد نص على ذلك غير واحد من
الأئمة ، وذلك لأن الرباط من جنس الجهاد • والمجاورة غايتها أن تكون
من جنس الحج) (٢٣٧) •

وقال عبد الله بن المبارك فى أبيات بعث بها الى الفضيل بن عياض :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا
لعلمت أنك فى العباداة تلعب
من كان يتعب خيله فى باطل
فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ، ونحن عبيرنا
وهج السناكب والغبار الأطيب
ولقد أثنانا من مقال نبينا
قول صحيح صادق •• لا يكذب

• (٢٣٥) رواه الشيخان

• (٢٣٦) رواه مسلم

• (٢٣٧) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٦٠٥ •

هذا كتاب الله ينطق بيننا

ليس الشهيد بميت ! لا يكذب (٢٣٨)

واذا كان للجهاد هذا الفضل العظيم فان للمجاهد فضلا عظيما. أيضا ، فهو خير الناس ، فقد روى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ألا أخبركم بخير الناس ؟ ! رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله • ألا أخبركم بالذى يتلوه ؟ ! رجل معتزل في غنيمة له يؤدى حق الله فيها ألا أخبركم بشر الناس ؟ ! رجل يسأل بالله ولا يعطى به) وسئل النبي صلى الله عليه وسلم : أى الناس أفضل ؟ ! قال : (مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله) قالوا : ثم من ؟ قال : (مؤمن في شعب من الشعاب يتقى الله ويدع الناس من شره) (٢٣٩) •

ويلحق بالمجاهد في الفضل كل من يعمل عملا يتصل بأعمال الجهاد كالذى يصنع السلاح أو ينقله الى الجنود المجاهدين في ميدان القتال ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول : (ان الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة • صانعه يحتسب في صنعته الخير ، والرامي به ، والممد به) (٢٤٠) •

فوائد الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الحق :

ان للجهاد في سبيل الله فوائد عظيمة يحصل عليها المجاهد هي :

١ - أوجب الله تعالى للمجاهد الجنة بفضلته وكرمه سبحانه وتعالى فقال عز من قائل : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم

(٢٣٨) السيد سابق : فقه السنة ج ٣ ص ٣٨ •

(٢٣٩) متفق عليه (٢٤٠) رواه أبو داود :

وأموالهم بأن لهم الجنة » (٢٤١) وقال : صلى الله عليه وسلم (ان في الجنة مائة درجة ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين السماء والأرض أعدتها الله للمجاهدين في سبيله) (٢٤٢) وقال عليه السلام : (من قاتل فواق ناقة وجبت له الجنة) (٢٤٣) •

٢ — أن المجاهد ينال خيرا ، فهو :

(أ) اما أن يستشهد فيدخل الجنة •

(ب) واما أن يرجع بأجر وغنيمة منتصرا •

قال تعالى : « قل هل توبصون بنا الا احدى الحسينين » (٢٤٤) أى النصر أو الشهادة •

٣ — ان جرح المجاهد لا يزول عنه أثر الدم بغسل ولا غيره • قال صلى الله عليه وسلم : (ما من مكوم يكلم في سبيل الله الا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى اللون لون الدم ، والريح ريح مسك) (٢٤٥) •

٤ — أن الشهيد يرى درجاته فيتمنى أن يحيا ويرجع ليقاتل للميرى من الكرامة عند خروج روحه وما أعدّه الله له من الثواب قال عليه الصلاة والسلام : (ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع الى الدنيا وله ما على الأرض من شيء الا الشهيد ، يتمنى أن يرجع الى الدنيا ، فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة) وفي رواية : (لما يرى من فضل الشهادة) (٢٤٦) •

٥ — أن ثواب الغدوة والروحة في سبيل الله خير من نعيم الدنيا كلها لو ملكها انسان ، وتصور تتعمه بها كلها ، لأن نعيم الدنيا زائل ،

(٢٤٢) رواه الشيخان •

(٢٤٤) سورة التوبة ٥٢ •

(٢٤٦) متفق عليه •

(٢٤١) سورة التوبة ١١١

(٢٤٣) رواه الترمذى

(٢٤٥) متفق عليه

ونعيم الآخرة باق ، فعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لعدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها) (٢٤٧) •

٦ — ان الله يجعل روح المؤمن المجاهد كالمطائر المتنقل ليتنعم بأزاهير الجنة ، فقد قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : (لما أصيب اخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم في حواصل طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى الى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ اخواننا عنا أننا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ؟ فقال الله تعالى : « أنا أبلغهم عنكم » وأنزل الله : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما أتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » • يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » (٢٤٨) •

وقال صلى الله عليه وسلم : (أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ، تترشح في الجنة حيث شاءت) •

٧ — أن الشهيد لا يحس بألم القتل احساسا شديدا • يقول صلى الله عليه وسلم : (ما يجد الشهيد من مس القتل الا كما يجد أحدكم من مس القرصة) (٢٤٩) •

كل هذا الجزاء وهذه الفوائد انما هي ان قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا •

فصل الثانی

من الأخلاق غیر الفاضلة

١ - النفاق

- النفاق هو اظهار الايمان باللسان وكتمان الكفر بالقلب (١) .
- والمنافق على هذا المعنى هو من ستر الكفر وأظهر الايمان باللسان .
- وهذا هو المنافق الكافر .

فالمعنى اللغوى للنفاق خاص بالعقيدة ، غير أنه يعد اسما لظاهرة خلقية اجتماعية خطيرة لها آثارها على مختلف نواحي المجتمع ، وعلى تهيئة الأجيال الصالحة وعلى تربية الشباب ، وعلى اتخاذ القرارات أيا كانت .

ومن هنا فالمنافق هو الانسان الذى يظهر غير ماييطن،ويقول ما لايفعل . وما لا يعتقد ، أى أن المنافق هو الذى يتظاهر بما ليس فيه على الاطلاق .

والنفاق شكل من أحط أشكال الكذب ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها : اذا أؤتمن خان ، واذا حدث كذب ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر) (٢) .

كان النفاق كذلك لأنه الباس للشر ثوب الخير ، فهو غش وخداع للنفس والغير ، لأن النفاق عملية تبادل بين طرفين ، فقد يكون بين الشخص ونفسه ، وقد يكون بين الشخص وشخص آخر . وهو ظاهرة فردية بمعنى أنه ظاهرة يمكن ردها الى عوامل فردية نابعة من الفرد نفسه ، سواء كان هذا الفرد منافقا أو منافقا .

(١) الجرجاني : التعريفات ص ٢١٩ .

(٢) متفق عليه .

والنفاق من الناحية السيكولوجية سمة من سمات الشخصية السلبية التي ترجع جذورها الأولى الى التعود على الكذب وعدم الموضوعية وعدم التمسك بذكر الحقائق التي يشعر بها الفرد في داخله ، وكل ذلك ناشئ عن عدم الايمان الصحيح في نفوس الناس وعقولهم وقلوبهم *

والمنافق من الناحية السيكولوجية شخصية مريضة ، منقسمة على نفسها فالظاهر يتصارع مع الباطن في داخلها * وهو أيضا ضعيف الشخصية غير واثق من نفسه ، وهو ذليل ولكنه لا يعترف لنفسه بأنه منافق حتى لا يشعر باحتقار نفسه ، ولكنه يسمى نفاقه نوعا من اللباقة ، غير أنه في واقع الأمر انسان يدين بالخيانة والغدر ، ويتصف بالخبت والمكر والخداع والدس والوقية والرياء والمداينة ، فهو انسان متلون لا يثبت على حال ، وليس له رأى مستقر ، حتى انه يبلغ به الحد أن يمتدح الشيء ونقيضه في آن واحد ، فهو انسان لا رأى له ولا وزن ، بل هو جدير بنبذ المجتمع له *

كما أن المنافق انسان خائف مرتعد يعجز عن التعبير عن الرأى الصواب ، وليس من الضروري أن يكون النفاق هو اظهار خلاف الباطن فقط ، بل ان السكوت عن الخطأ ضرب من ضروب النفاق السلبي ، فالساكت عن الحق شيطان أخرس وان كان من الضروري أن يعبر الانسان عن رأيه بالأسلوب العلمى الموضوعى وبطريقة تتفق مع الشرع والعقل *

وهذه الأمراض التي تعترى المنافق أنما تنشأ من أنه ليس أميناً مع نفسه ولا مع الناس فهو يكذب على نفسه ليرضى الناس ، ويكذب على الناس ليخدعهم عن حقيقته * وفي الحق انه لا يخدع الا نفسه ، فالناس يعرفون حقيقته من التعارض الذي يروونه بين أقواله

وأفعاله ، وحتى ان استطاع أن يخدع الناس فلن يستطيع أن يخدع الذى يعلم ماتوسوس به نفسه: «يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون» (٣) *

وقد عرض القرآن الكريم للسمات النفسية التى هى أعراض لمرض النفاق على النحو التالى :

١ — الكذب على النفس وعلى الناس *

٢ — الفسق : « ان المنافقين هم الفاسقون » (٤) *

٣ — الافساد فى الأرض * « واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون » (٥) *

٤ — المسفه ، « واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء » (٦) *

٥ — التظاهر بالايمان ، « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلو الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون » (٧) ، « يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » (٨) *

٦ — مراعاة الناس بالعبادة « واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس » (٩) *

-
- (٣) سورة البقرة ٩ — ١٠ *
- (٤) سورة التوبة ٦٧ *
- (٥) سورة البقرة ١١ — ١٢ *
- (٦) سورة البقرة ١٣ *
- (٧) سورة البقرة ١٤ *
- (٨) سورة النساء ١٣٩ *
- (٩) سورة النساء ١٤٢ *

٧- كثرة الحلف للمؤمنين ليخدعوهم عن كفرهم ، « ويحلفون بالله انهم لنكنم وما هم منكم » (١٠) ، « يحلفون بالله لكم ليرضوكم » (١١) ، « اتخذوا أيمانهم جنة » (١٢) •

٨ - اختلاق الأعذار ، فالمنافق صاحب عقلية تبريرية يعتذر بها عن التخلف عن المشاركة في بناء مجتمعه والدفاع عنه ، « ويستأذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة وما هي بعورة ان يريدون الا فرارا » (١٣) •

٩ - جمال الظاهر وخراب الباطن ، « واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم » (١٤) •

١٠ - التآمر على المسلمين ، فشخصية المنافق شخصية تعمل في الظلام وتثير الفتنة والدسائس بين المسلمين بأساليب مختلفة • « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من القول » (١٥) •

١١ - الانتهازية ، فالمنافق انتهازى يلعب على الحبلين ، ويحاول أن يرضى جميع المتصارعين محاولا خداعهم والاستفادة منهم جميعا « الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ، وان كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » (١٦) •

-
- (١٠) سورة التوبة ٥٦
 - (١١) سورة التوبة ٦٢
 - (١٢) سورة المنافقون ٢
 - (١٣) سورة الأحزاب ١٣
 - (١٤) سورة المنافقون ٤
 - (١٥) سورة النساء ١٠٨
 - (١٦) سورة النساء ١٤١

وهذا الموقف المذبذب الذى وقفه منافقو المدينة موقف نفعى لا أخلاقى • وهو لا يقتصر على منافقى المدينة وحدهم بل هو موقف كل منافق فى أى زمان ومكان « مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء » (١٧) •

فشخصية المنافق شخصية شريرة لا أخلاق ترددها ولا مبادئ ترددها ، فقد وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : (تجدون الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام ، وتجدون خيار الناس فى هذا الشأن) (الامارة) أشدهم كارهية له ، وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه) (١٨) •

أما أنواع النفاق فاننا نستطيع أن نميز من صورها المتعددة نوعين أساسيين هما نفاق التملق ، ونفاق الكفر •

أما الأول فهو تقرب الانسان الى غيره من الناس وبخاصة من كان ذا سلطة وثروة وجاه فيمدحه بما ليس فيه ويتذلل له لتحقيق نفع ما وغالبا ما يكون هذا النفع جمع مال أو احراز جاه أو كليهما معا ، وهو فى هذا يرضى الناس بما يغضب الله • فالذى يحركه الرغبة والرغبة أو الطمع والخوف •

وقد روى عن محمد بن زيد أن ناسا قالوا لجده عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : انا ندخل على سلاطيننا فنقول بخلاف ما نتكلم اذا خرجنا من عندهم • قال : « كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » (١٩) •

• (١٧) سورة النساء ١٤٣

• (١٨) متفق عليه

• (١٩) رواه البخارى • وقد ورد فى رياض الصالحين ص ٥٦٠ •

والمنافق يبائع في الاهتمام بالناس ، ولكن هذا الاهتمام لا ينشأ من احترامه لقيمهم الانسانية أو مصالحهم أو مضارهم ، وإنما ينشأ من اعتبارهم وسيلة لتحقيق غاياته ، فهو اهتمام نفعى خالص . ومن ثم فهو يروجهم ويخشاهم ويعمل ما يرضيهم ويتجنب ما يسخطهم طالما يظن أنهم يحققون هذه الغايات . وهو في هذه الحال لا يهتم بما يرضى الله أو يسخطه .

والمسلم يجب عليه أن يعامل الناس بما يرضى الله ، وما يرضى الله لابد أن يرضى الناس اذا كانوا مهتدين ، أما اذا كانوا غير ذلك فانه لا يرضيهم ، لأنهم في هذه الحال يتبعون أهواءهم والذي يتبع الهوى لا يرضى الا ما يغضب الله .

ان فلسفة النفاق تدعو دائماً الى ارضاء الناس أو تحقيق رغبات الجماهير بأى ثمن . وغالباً ما يكون ذلك بارضاء غرائزهم الحيوانية وشهواتهم البهيمية اذا كان هؤلاء الناس من العامة ، أو يكون بارضاء غرورهم اذا كان هؤلاء من الحكام وخاصة الناس . وهذا في الواقع أقصر الطرق لتحقيق النجاح المادى السريع والرخيص ، غير أنه أقصر الطرق لاستجلاب سخط الله وغضبه .

يقول الامام الغزالي . « اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق ، مشغوفاً بالتودد اليهم والمراعاة لأجلهم ، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً الى ما يعظم منزلته عندهم ، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ، ويجر ذلك لا محالة الى التساهل في العبادات والمراعاة بها ، والى اقتحام المحظورات للتوصل الى اقتناص القلوب ، ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال وفسادهما للدين بذئبين ضاريين ، وقال عليه السلام انه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل اذ النفاق هو مخالفة المظاهر للباطن بالقول أو

المفعول ، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر الى النفاق معهم
والى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها ، وذلك هو عين النفاق» (٢٠) •

ويرى الغزالي أن الرياء يعرض المرائي لتشتت لا ألهم بسبب
ملاحظة قلوب الخلق ، فان رضا الناس غاية لا تدرك ، فكل ما يرضى به
فريق يسخط به فريق ، ورضا بعضهم في سخط بعضهم ، ومن طلب
رضاهم في سخط الله سخط الله عليه وأسخطهم أيضا عليه • ثم أى غرض
له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم ولا يزيده حمدهم رزقا ولا أجلا
ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة» (٢١) •

أما فيما يتعلق بالنوع الثانى من أنواع النفاق وهو نفاق الكفر ،
فيمكن القول بأنه أخبت أنواع النفاق ، لأنه خداع للمؤمنين من أجل
الاضرار بهم كافة والقضاء عليهم وعلى إيمانهم ، فليس الأمر هنا أمر
نفع لفرد أو دفع ضرر عنه ، انما الأمر هنا أخطر بكثير ، لأنهم في هذه
الحالة أخطر من الكفار •

وأوضح من يمثل هذا النوع من النفاق في عصرنا الحاضر ما يسمى
بالمطابور الخامس وما يقوم به من أعمال التجسس والتخريب والتثبيط
واثارة الفتنة في المجتمع الاسلامى لمساعدة العدو الخارجى •

لكن ما هى الأسباب التى تؤدى الى النفاق ؟

ان هناك أسبابا كثيرة للنفاق ولكن يمكن ارجاعها الى سببين
أساسيين هما الخوف والطمع ، وعدم الايمان •

فالنفاق ينتشر في عصور الانحطاط حيث يبتعد الناس عن الدين
والايمان بالله ، ويقوى إيمانهم بالحياة ، ويشتد حرصهم عليها ، وتزداد

(٢٠) أبو حامد الغزالي : احياء علوم الدين ج ٣ ص ٢٨٠ •

(٢١) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٠٣ •

بالتالى أهمية الناس عندهم ، فيزداد الخوف منهم والطمع فيما في أيديهم من مال أو جاه وسلطة •

وتتضح هذه الظاهرة في تاريخ الأدب حيث نجد الشعراء يتكسبون بالشعر عن طريق المدح الكاذب ، كما يتضح في التاريخ السياسى فى العلاقة بين الحاكم والرعية وهى غالبا ما تكون كعلاقة السيد بالعبد والعبد بالسيد •

واليوم نجد أطفال مسلمين يربون على الخوف من آبائهم ، فلا يستطيعون التعبير عن أنفسهم بصراحة وجراءة •

غير أنه يمكن القول ان الفرد قد يلجأ الى النفاق فى أية مرحلة من مراحل العمر ، ابتداء من الطفولة حتى الشيخوخة ، ولكن لكل مرحلة أسبابها ، وبالطبع اذا تكونت عادة النفاق فى مقتبل العمر كان من الصعب التخلص منها فيما بعد • وقد يكذب الطفل أو ينافق — مثلا — لجذب انتباه الآخرين اليه ، أو للحصول على اعجابهم ، وقد يكذب الفرد دون أن يدري ، وذلك عندما يتقمص شخصية انسان آخر أو يتوحد معه • لينصره ظالما أو مظلوما بصورة لا شعورية •

ومن أقوى الأسباب المؤدية الى الكذب ، الذى هو الأساس النفسى للنفاق ، خوف الطفل من انزال العقاب به ، ان هو ذكر الحقائق ، ولذلك يسعى للهروب من المسؤولية عن طريق الكذب •

وقد يلجأ الطفل الى الكذب والنفاق لكى يرضى الآباء ، والكبار بعامة • وقد يشب الطفل على الكذب والنفاق عن طريق المحاكاة والتقليد وذلك اذا شب فى وسط تنتشر فيه هاتان الظاهرتان وبالمثل فان الموظف الصغير قد يعتنق منهج النفاق اذا كان رئيسه منافقا •

والواقع أن الفرد — وهو بصدد اثباع رغباته وأطماعه — يجرب طرقا مختلفة ، فاذا جرب منهج النفاق ووجده موصلا الى أهدافه اعتنقه

منهجاً له في مستقبل حياته ، أما اذا فشل هذا الأسلوب فانه يقلع عنه . ويلجأ الى أسلوب آخر لعله ينفع ، فهو شخص مذبذب كما ذكرنا من قبل .

فالانسان قد يوافق لتحقيق نفع ما ، أو لدفع ضرر ما ، أو لانزال الضرر بالغير . والانسان يوافق في جو يسوده عدم الثقة بين الناس ، وعدم الايجابية والجدية في العمل ، وعدم توافر المناخ الملائم من حيث تحقيق العدالة بين الناس ، وعدم ترجيح كفة غير المنافقين . كما ينتشر النفاق عندما تتحطم القيم والمعايير والمقاييس الخلقية والدينية ، وعندما تنعدم الثقة في النفس وفي الله : وعندما تغيب المصارحة بين الناس ، وعندما تصبح متابعة الأمور أمراً شكلياً محضاً ، وعندما تنعدم مشاركة جميع الأفراد في كل ما يهم صالح الأمة ، أى عندما تنعدم قيمة الانسان ولا يعتد به .

والحق أن المشكلة تكمن بالدرجة الأولى في التربية القائمة على التخويف فهذه التربية تترك آثارها السيئة في الحياة الاجتماعية والسياسية في المجتمع المسلم . ففي الحياة الاجتماعية يسود نفاق الضعفاء للأقوياء ، وتملق المرعوسين للرؤساء ، ويصبح مقياس الكفاءة والتقدير هو هذا التملق وذلك النفاق لبعض ذوى الجاه وأصحاب النفوذ والسلطان . ومن هنا يتولى المناصب من لا يصلحون لها ، ويعد عنها من يصلحون من أصحاب العقول الممتازة والكفاءات المتميزة ، فيحرم المجتمع بذلك من العناصر الخيرة ، ومن ثم يذبل وينخر السوس في عظامه .

أما من حيث الحياة السياسية فنستطيع القول أن هناك ارتباطاً قوياً بين الاستبداد السياسى والنفاق . فالرعاة أو الحكام يقربون المنافقين الذين يمدحونهم ويتملقونهم بثبتي الوسائل ، ويعبدون

أصحاب الخلق الرفيع والأكفاء الناصحين ، وهذا ضرب من ضروب الاستبداد والطغيان •

تلك هى أسباب الداء الذى حارت البرية فيه ، فهل له من علاج ؟ وهل لهذا المرض من شفاء ؟

الحق أن النفاق — كما يتضح لكل ذى رأى — مرض خطير ، له أكبر الآثار المضارة على الفرد وعلى المجتمع • وهو يتطلب علاجاً حاسماً ، حتى يعيش الفرد والمجتمع فى مناخ صحى طيب يقوم على حسن الخلق ، وكفاءة الأفراد وحسن أدائهم لأعمالهم ، فى نكران للذات ومراعاة لمصالح الجماعة المسلمة •

وللشفاء من هذا الداء العضال يجب أن نهتم بالتربية ، فى البيت أولاً ، ثم فى المدرسة ثانياً ، فنربى أبناءنا وبناتنا على التخلق بخلق الاسلام وأدبه • فتعلمهم أن الاسلام لا يعرف غير الحق ، ويعترف سائرأى ويحترمه ، وقد جعل الشورى من أهم أسس مجتمع المسلمين وصفة من صفات جماعة المؤمنين « وأمرهم شورى بينهم » (٢٢) ، والاسلام يحمى الانسان ويحترمه حتى وان خالف فى العقيدة ، ومن هنا فلا بد أن نحمل صاحب الرأى المخالف من وطأة العقاب •

واذا تحققت المساواة والمعدل فى تطبيق أحكام الشرع والقانون على الجميع دون استثناء كان فى ذلك شفاء من داء النفاق •

كما أن من المفيد فى علاج هذا الداء أيضاً أن نضرب بشدة على أيدي المنافقين وأن نقصصهم عن المراكز التى تسللوا اليها بغير حق ، وفى غفلة من الزمن ، وأن نضع فى الوقت نفسه أصحاب الخلق غير

المنافقين في المناصب القيادية وفقا لمعايير الشرف والأمانة والصدق
والشجاعة والثقة بالنفس والاخلاص والولاء للمجتمع الاسلامي
وجماعة المسلمين *

ولا ينبغي أن ننسى أبدا أن هذا لا يمكن أن يحدث الا اذا ضرب
من بيده الأمر المثل الصالح والقُدوة الحسنة حتى يتبعه غيره من الناس *

هذا هو علاج نفاق التملق نتيجة الخوف ، أما علاج نفاق التملق
نتيجة الطمع في المال والشهرة والتفاخر بالمال والجاه والمنزلة بين
الناس فانه يكون بأمرين : أما أولهما فهو حسن صلة المسلم بالله تعالى ،
وأما ثانيهما فهو أن يتخذ الانسان هدى الله وحده مرشدا له في تصحيح
فهمه وسلوكه *

فاذا حدث هذا علم الانسان أن الأرزاق والآجال والضر والنفع
بيد الله وحده ، ومن ثم يتحرر الانسان من الخوف من الناس ومن
الطمع مما في أيديهم من مال أو جاه ، ومن هنا يجعل مقياسه العمل
والتقوى لا التملق والنفاق *

أما علاج نفاق الكفر فهو أن يوجد مجتمع مسلم يلتزم بالاسلام
الحقيقي ، فالنفاق نوع من ضلال الكفر ، ولا يكشف الضلال بالضلال
وانما يكشف الضلال بالهدى ، ففي المجتمع المسلم تتحدد الفروق بين
الناس ، وبها يتميزون * ويعد تعامل الاسلام مع المنافقين حسب
ظاهرهم نوعا من العلاج الحكيم ، لأنه لا يجوز أن نسوى بين المجاهر
بالكفر والعداوة والمستخفي بهما (٢٣) *

(٢٣) د. أحمد عبد الحميد غراب : الشخصية الانسانية في ضوء

القرآن الكريم ص ١٥١ - ١٦٦ ود. محفوظ عزام : ظاهرة النفاق وأثرها
الاجتماعي . مقال بـمجلة الدعوة السعودية *

تلكم هي ظاهرة النفاق ، وهذه هي أسبابها ، وهذا هو علاجها ،
قدمناه آمليين من الله عز وجل أن يخلصنا من هذا الداء العضال انه
نعم المسئول •

٢ - الظلم

الظلم خلق سييء غير محمود على الاطلاق ، لأنه انحراف عن
العدل • وهو وضع الشيء في غير موضعه المخصوص به (٢٤) ، وفي
التشريعة عبارة عن التعدى عن الحق الى الباطل وهو الجور ، وقيل هو
التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد (٢٥) •

والظلم أنواع كثيرة أعظمها الشرك بالله تعالى ، والظالم في هذه
الحال لا يدخل تحت شريعة الله « ان الشرك لظلم عظيم » (٢٦) • ومن
الظلم ألا يطيع الانسان الحاكم المسلم ولا يلتزم بأحكامه الموافقة
للشرع • ومن الظلم أن يتعطل الانسان عن المكاسب والأعمال فيأخذ
منافع الناس ولا يعطيهم منفعة • ومن الظلم الاعتداء على الناس بأي
وجه من وجوه الاعتداء ، سواء كان هذا الاعتداء على الأنفس
أو الأعراس أو الأموال • والانسان يظلم نفسه قبل أن يظلم غيره •
من هنا حرم الاسلام الظلم وتوعد الظالمين بالعذاب الأليم •
لما يترتب على الظلم من آثار خطيرة •

فما هي آثار الظلم ونتائجه ؟

وهنا ندع « ابن خلدون » يجيب على هذا السؤال حيث يقول في
الفصل الذي جعل عنوانه « فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران »

(٢٤) الراغب الأصفهاني : كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة

ص ٣٥٧ •

(٢٥) الجرجاني : التعريفات ص ١٢٥ •

(٢٦) سورة لقمان ١٣ •

والذى أشرنا اليه عند حديثنا عن ضرورة الأخلاق : « اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم • وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى في ذلك • وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى في الاكتساب ، فإذا كان الاعتداء كثيرا عاما في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك ، لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها • وإن كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض عن الكسب على نسبته •

« والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعى الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين جائئين • فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال ، وابدأ عن (تفرق) الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها • فخفف ساكن القطر ، وخلت دياره ، وخربت أمصاره ، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان ، لما أنها صورة

للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة ••

« ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور ، بل الظلم أعم من ذلك • وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه •

« فجبارة الأموال بغير حقها ظلمة ، والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة ، والممانعون لحقوق الناس ظلمة ، وغصاب الأملاك على العموم ظلمة ، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذى هو مادتها لذهابه الآمال من أهله •••

« ومن أشد الظلمات وأعظمها في افساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق •• فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا

سخرىا فى معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك ، وهو متمولهم فدخل عليهم الضرر ، وذهب لهم حظ كبير من معاشهم ، بل هو معاشهم بالجملة • وان تكرر ذلك أفسد آمالهم فى العمارة وقعدوا من السعى فيها جملة ، فأدى ذلك الى انتقاص العمران وتخريبه ••

« وأعظم من ذلك فى الظلم وافساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس ، بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والاكراه فى الشراء والبيع •• فتكسد الأسواق ويبطل معاش الرعايا •• وتنقص جباية السلطان أو تفسد ، ويؤول ذلك الى تلاشى الدولة وفساد عمران المدينة ويضطرق هذا الخلل على التدريج ولا يشعر به ••

« وأما أخذها (الأموال) مجاناً ، والمعدوان على الناس فى أموالهم وحرمانهم ودهائهم وأسرارهم وأعراضهم فهو يقضى الى الخلل والفساد دفعة ، وتنتقض الدولة سريعاً بما ينشأ عنه من المهرج (القتل) المفضى الى الانتفاض • (٢٧)

فالظلم يخرب الأمم ويهلكها سواء كان ذلك بالتدريج أو دفعة واحدة والذي لا يتعاطى العدل بأى وجه من الوجوه فقد انسلك من الانسانية (٢٨) على حد قول الراغب الأصفهاني •

ولما كان للظلم هذه النتائج والآثار الوخيمة التى تودى بالأمم والمجتمعات ، فقد توعد الله ورسوله الظالمين بالعذاب الأليم وحذرا من الوقوع فيه •

(٢٧) ابن خلدون المقدمة ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ •

(٢٨) الراغب الأصفهاني : النريعة الى مكارم الشريعة ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ •

فقد جاء في القرآن الكريم :

« ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم
تشخص فيه الأبصار • مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم
وأفئدتهم هواء » (٢٩) •

« ألا لعنة الله على الظالمين » (٣٠) •

« إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيغون في الأرض بغير
الحق أولئك لهم عذاب أليم » (٣١) •

« وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من
سبيل وتراهم يعرضون عليها خاشعين من المذل ينظرون من طرف
خلفى » (٣٢) •

وقد جاء في السنة النبوية :

عن أبي ذر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروى
عن ربه عز وجل أنه قال : « يا عبادى ، انى حرمت الظلم على نفسى ،
وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » (٣٣) •

« انقوا الظلم ، فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فان
الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستجلوا
محارمهم » (٣٤) •

• (٢٩) سورة ابراهيم ٤٢ - ٤٣

• (٣٠) سورة هود ١٨

• (٣١) سورة الشورى ٤٢

• (٣٢) سورة الشورى ٤٤ - ٤٥

• (٣٣) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه

• (٣٤) رواه مسلم وغيره

- « لا تظلموا فتدعوا فلا يستجاب لكم ، وتستسقوا فلا تسقوا
وتستنصروا فلا تنصروا » (٣٥) •
- « صنفان من أمتي لن تنالهما شفاعتي : امام ظلوم غشوم ،
وكل غال مارق » (٣٦) •
- « ان الله يملئ للظالم فاذا أخذه لم يفلته » (٣٧) •
-

-
- (٣٥) رواه الطبراني •
(٣٦) رواه الطبراني •
(٣٧) رواه البخاري ومسلم والترمذي •

المصادر والمراجع

- ١ — القرآن الكريم •
- ٢ — صحيح البخارى •
- ٣ — صحيح مسلم •
- ٤ — موطأ الامام مالك •
- ٥ — مسند أحمد بن حنبل •
- ٦ — سنن النسائى •
- ٧ — سنن أبى داود •
- ٨ — سنن الترمذى •
- ٩ — سنن ابن ماجه •
- ١٠ — الكتاب المقدس •
- ١١ — أبو حامد الغزالى : احياء علوم الدين ، مكتبة الحلبي — القاهرة .
- ١٢ — أبو الحسن الماوردى : كتاب أدب الدنيا والدين • المطبعة
الأميرية بالقاهرة سنة ١٩١٧ •
- ١٣ — ابن تيمية : مجموع الفتاوى — الرياض •
- ١٤ — ابن خلدون : المقدمة ، دار الشعب القاهرة •
- ١٥ — ابن منظور : لسان العرب — القاهرة •
- ١٦ — ابن هشام : السيرة النبوية — تحقيق مصطفى السقا وزميليه •
القاهرة سنة ١٩٣٦ •
- ١٧ — أحمد عبد الحميد غراب (د) • الشخصية الانسانية فى ضوء
القرآن الكريم • القاهرة سنة ١٩٨٥ •
- ١٨ — اسماعيل العجلونى : كشف الخفاء ومزيل الالباس ، القاهرة •
سنة ١٣٥١ هـ •

- ١٩ - أحمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ، القاهرة •
- ٢٠ - الراغب الأصفهاني : كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة تحقيقاً ودراسة الدكتور أبو اليزيد العجمي دار الصحوة - القاهرة سنة ١٩٨٥ •
- ٢١ - الجرجاني : التعريفات - مطبعة الحلبي سنة ١٩٣٨ •
- ٢٢ - السيد سابق : فقه السنة - القاهرة •
- ٢٣ - سهير محمد مختار (د) : محاضرات في الأخلاق ، القاهرة سنة ١٩٧٦ •
- ٢٤ - الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة • الطبعة الثانية سنة ١٩٧٥ القاهرة •
- ٢٥ - عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة - دار الشروق - بيروت والقاهرة •
- ٢٦ - عبد الرحمن عزام بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي محمد ، القاهرة سنة ١٩٦٤ •
- ٢٧ - عبد الرحمن بدوي (د) : الأخلاق النظرية - الطبعة الأولى - الكويت سنة ١٩٧٥ •
- ٢٨ - عبد اللطيف العبد (د) : الأخلاق في الاسلام - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥ •
- ٢٩ - فيصل بدير عون (د) : دراسات في الفلسفة الخلقية - مكتبة الحرية الحديثة - القاهرة •
- ٣٠ - كارادي فو : مقال بدائرة المعارف الاسلامية ج ٢ دار الشعب - القاهرة •
- ٣١ - مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفي - القاهرة •
- ٣٢ - محفوظ علي عزام (د) : نظرات في الثقافة الاسلامية - دار اللواء - الرياض سنة ١٩٨٤ •

- ٣٣ — محفوظ على عزام (د) : نظرية التطور عند مفكرى الاسلام .
— دراسة مقارنة — دار الهداية القاهرة ١٩٨٦ •
- ٣٤ — محفوظ على عزام (د) ظاهرة النفاق وأثرها الاجتماعي —
مقال بمجلة الدعوة — السعودية في ٢٨/٤/١٤٠٣ هـ •
- ٣٥ — محمد الخضر حسين : آداب الحرب فى الاسلام — القاهرة •
- ٣٦ — محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم سنة ١٣٥٣ هـ —
القاهرة •
- ٣٧ — محمد عبد الله دراز (د) : دراسات اسلامية — دار القلم —
الكويت سنة ١٩٧٣ •
- ٣٨ — محمد يوسف موسى (د) : تاريخ الأخلاق فى الاسلام — القاهرة
- ٣٩ — محمود شيت خطاب : الرسول القائد — الطبعة الثانية — القاهرة
- ٤٠ — مسكويه : تهذيب الأخلاق — مطبعة صبيح القاهرة •
- ٤١ — المنذرى : الترغيب والترهيب من الحديث الشريف — الطبعة
الثالثة القاهرة سنة ١٩٦٨ •
- ٤٢ — النووى : رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين — الحلبي
— القاهرة •
- ٤٣ — وليام ليلى : المدخل الى علم الأخلاق — ترجمة وتقديم وتعليق
د. على عبد المعطى محمد — دار المعرفة الجامعية سنة ١٩٨٥ •
- ٤٤ —
Ghulam Sarwar : Islam, Beliefs and Teachings London, 1982
- ٤٥ —
Islamic Council : A model of an Islamic Constitution, 1983.
- ٤٦ —
M. M. Pichthal : The Meaning of The Glorious Qur'an

المحتوى

صفحة	
٣	مقدمة
	الباب الأول
٧	الأخلاق النظرية
٩	الفصل الأول : علم الأخلاق وأهميته
١١	١ - تعريف الأخلاق
١٨	٢ - تعريف علم الأخلاق
٢١	٣ - موضوع علم الأخلاق
٢٢	٤ - غاية الأخلاق
٢٤	٥ - ضرورة الأخلاق
٣١	الفصل الثانى : أسس الأخلاق
٣٣	١ - الالتزام الخلقى
٣٦	٢ - المسؤولية الأخلاقية
٣٨	٣ - الجزاء الأخلاقى
١٤٠	٤ - النية والدافع
٤٢	٥ - هل القيم الأخلاقية تتطور

١٤٣

صفحة

الباب الثانى

الأخلاق العملية

٤٧

٤٩

الفصل الأول : من الأخلاق الفاضلة

٥١

١ - أداء الأمانة

٥٢

(أ) حقوق الناس

٦٧

(ب) حقوق البيئة الطبيعية

٦٩

٢ - الشجاعة

٨٢

٣ - الجهاد

٨٣

مفهوم الجهاد

٨٢

الجهاد مصطلح اسلامى

٩٣

حكم الجهاد

٩٣

المغرض من الجهاد

٩٦

شروط الجندية

١٠٤

نظام القتال فى الاسلام

١١١

آداب الحرب وأخلاقياته

١١٦

فضل الجهاد والمجاهدين

١٢١

الفصل الثانى : من الأخلاق غير الفاضلة

١٢٣

١ - النفاق

١٣٤

٢ - الظلم

١٣٩

المصادر والمراجع

١٤٣

المحتوى

رقم الإبداع بدار الكتب ١٩٨٦ / ٥٣٩١

مَطْبَعَةُ الْإِسْلَامِ
٣ شارع جنينة بدران منشرا - مصر

